أمهات الكتب

مكتبة 2000 الأسرة

مهرجان القراءة للجميع 2000

رينيه ديكارت

# عن المنهج العلمى

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

اسم العمل الفنى :لاعب الجيتار، باريس ١٩٢٠

التقنية :                    المقاس :

مقتنيات: جو تار ميست، باريس

## بابلو بيكاسو (١٨٨١ - ١٩٧٣)

فنان مصور أسبانى، عرف بأنه أعظم المصورين المعاصرين، وأغزرهم نتاجًا وقيمة، فهو لايبحث عن موضوعات أو معنى أو مضمون، وإنما يجد كل شيء بسهولة، فهو صاحب عقلية قوية وذهنية صافية متوقدة، يعتمد في تصميماته على التنظيم الهندسى للأشكال المجردة والتكعيبية(*)، وهو سريع التغير، يتنقل من أسلوب لأسلوب بحثًا عن كل ما هو جديد ومباغت، حتى أنه صمم الديكورات للمسرح، وعمل فى الحفر والنحت والخزف ورسوم الأطفال.

محمود الهندى

# مقال عن المنهج

تأليف: رينيه ديكارت

تقديم : د. عثمان أمين

ترجمة : محمود الخضيرى

مراجعة : د. محمد مصطفى حلمى

إعداد وتحرير: د. سمير سرحان

عنانى




# مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
## مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(أمهات الكتب)

**مقال عن المنهج**
**تأليف: رينيه ديكارت**
**تقديم: د. عثمان أمين**
**ترجمة: محمود الخضيري**
**مراجعة: محمد مصطفى حلمي**

الغلاف
والإشراف الفني:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

## على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

# تصدير

مازال كتاب مقال في المنهج الذى أبدعه الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت من أمهات كتب الفكر العلمى، فهو الكتاب الذى أرسى ما نسميه المنهج العلمى المعاصر، أى المنهج الذى يجمع بين الاستناد إلى طاقة الحواس في استكشاف حقائق العلم الطبيعى، وإلى طاقة الحدس فى استكشاف الحقائق التى تقع وراء العالم المحسوس ـ ومن ثم فهو يجمع بين السبيلين اللذين لا يمكن الخلاف حولهما فى عالمنا المعاصر، ولذلك فإن الكثيرين من علماء العصر الحديث ـ خصوصاً علماء الرياضيات الذين لايزالون يدينون له بالفضل ـ يعجبون كيف استطاع أن يفرق بين المدخلين ويجمع بينهما معاً، فديكارت مثلاً يجعل استنباط بعض الحقائق البديهية من اختصاص الحدس وحده ـ مثل إدراك وجود النفس ووجود الله سبحانه وتعالى ـ فالحقائق الروحية لا تعتمد على معطيات الحواس البدنية بل تحتاج إلى شفافية ذهنية فطرية، أى طاقة ذهنية يولد بها الإنسان ويعرف بها ما لا يمكن إثباته بالمنطق القائم على المدركات الحسية.

وكان هذا الجمع مع التمييز بين المنهجين فى الوقت ذاته هو الذى كفل لديكارت أن يضع حدود الفصل بين طرائق التمحيص اللازمة

لاستنباط بعض الحقائق العلمية المادية وطرائق التحليل الذهنى القائمة على الحدس واللازمة لاستنباط الحقائق النفسية والروحية ومن قبلها قواعد التفكير نفسها، وهو ما شغل الفيلسوف الألمانى ايمانويل كانط فيما بعد، وجعله يضع أكثر من كتاب في هذا الموضوع.

أما ما اشتهر به ديكارت من مذهب «الشك» فلا يعدو أن يكون نقطة انطلاق للبحث العلمى القائم على المنهجين معاً، فليس معنى الشك إنكار ما هو قائم بشهادة الحواس أو بشهادة العقل، بل معناه الرجوع إلى البداهة التى تستمد من الفطرة قوتها ومن الحدس أسلوبها فى التيقن بما قد يسلم به الناس دون تحقق من صحته، ومعناه من ثم هو طرح السؤال أولاً قبل البداية، أى أن الشك هو التساؤل أو البحث ـ وهو ما جعل كبار مؤرخى الفكر الأوروبى يعتبرونه أباً للحداثة ـ فالحداثة فى أبسط تعريف لها هى الذهن المتسائل أو الذهن الذى لا يسلّم بحقيقة شئ قبل طرح الأسئلة الصحيحة ـ بل إن من أهم ما أتى به ديكارت هو تلك النزعة المتسائلة، وهى النزعة التى يتميز بها كل عصر علمى وكل منهج علمى بطبيعة الحال.

ولكن ديكارت لم يكن فيلسوف علم أو منهج علم فقط، بل إنه جعل من منهجه أساساً يبنى عليه حياة الإنسان فى المجتمع الحديث، أى الذى من المفترض أن يهتدى بالعقل ـ ومن ثم كانت له نتائجه الأخلاقية والنفسية أو ما يسميها البعض بالدلالات السلوكية للمنهج..

وتفخر مكتبة الأسرة أن تقدم هذا الـكتاب المهم، على صغر حجمه، مشفـوعاً بمقدمة مســهبة للدكتور عـثمان أمين، حتى تشـجع الجميع على الإطلاع على هذا الرائد الأول من رواد التفكير العلمى فى العالم الحديث.

**والله من وراء القصد ،**

**مكتبة الأسرة**

# مقدمة

## بقلم: د. عثمان أمين

إن من حق كل أمة على العمم أن تفخر بنوابغ الفكر فيها ، وأن تعلن على رءوس الأشهاد أنها ، بفضل فلاسفتها وعلمائها ، قد استطاعت أن تشارك فى بناء الحضارة الإنسانية بالنصيب الأوفى . من حق الأمة الفرنسية على الخصوص أن تعتز بأكبر أبنائها - ديكارت - الذى كان له القدح المعلى فى الفلسفة والعلم على السواء . وبهذا الفضل الغامر اعترف أقطاب الفكر من الإنجليز والألمان ، فلم يكن عجيباً أن نرى «تشارلز مورجان» يكتب أبان الحرب العالمية الأخيرة ، وفرنسا تئن تحت نير الأحتلال الألمانى ، فيقول : «أن فرنسا فكرة ضرورية للحضارة» ؛ ولا غرو أن يوجه «هيجل» كلامه إلى «فيكتور كوزان» فى منتصف القرن الماضى ، فيقول : «لقد عملت أمتكم للفلسفة عملاً جليلاً حين أعطتها ديكارت . .»

منذ منتصف القرن السابع عشر أطل ديكارت على التاريخ فى صور وشخصيات مختلفة كل الاختلاف ، وشأنه فى ذلك شأن كثير من عباقرة الفكر قدماء ومحدثين . من رجال القرن الثامن عشر من عابوا عليه أفكاره «الظلامية» (أو «الرجعية» كما يقال اليوم) ، فى حين أن الكثيرين من أهل القرن التاسع عشر رأوا فيه هادم التقاليد العتيقة ، و «الثورى الفكرى» على الأصالة ؛ بينما نجد آخرين منهم يجعلون منه وريث «الأسقولائية» (المدرسية) ومجدد التقاليد ، نجد غيرهم وقد رأوا فيه نصيراً للكاثوليكية ، وحوله آخرون إلى عالم «وضعى» قبل الأوان ؛ بل ذهب بعض المحدثين إلى أنه الرائد لمدرسة «التحليل النفسى» وأول من رسم خطوط فلسفة للغريزة وللشعور . وأخيراً ذهب باحث معاصر إلى أن ديكارت كان فيلسوفاً «مقنعاً» ، عاش عيشة مستعارة ، وأخفى على الناس حقيقة أفكاره . . .

والناظر المتأمل فى حياة هذا الرجل وفلسفته لا يخلو من أن يتبين أنه ما من صورة من هذه الصور المختصرة الصارخة يمكن أن تكون مطابقة للحقيقة الواقعة : فديكارت ، فى نظر من صحبوه صحبة تعاطف وائتناس – أعنى صحبة جوانية لا صحبة عرضية ، هو رجل فكر حر واضح ، صريح ، بعيد عن التكلف والحذلقة، برئ من رطانة المتعالين والمتفيقهين، نفور من عقلية أصحاب المهنة» وطلاب الشهرة؛ حاول مخلصاً أن يستبين لنفسه صورة للكون، تضفى على حياته السلام الداخلى،

وتعطيه قدرة على الفكر والعمل . وقد استفاد عناصر هذه الفلسفة مما خبره بنفسه، وما حصله من الكتب ، وما تعلمه من الأساتذة . وظل الرجل - خلافاً لما ادعاه بعض المتزمتين - مستمسكاً بعرى عقيدة دينية خالصة ، كان لها أكبر الأثر حتى على مذهبه العقلى وأفكاره العلمية .

بعد أن درس الرياضة والموسيقى ، أرضاء لميوله الخاصة ، شرع يفكر فى الوجوه الكثيرة للبحث عن الحقيقة . وهيأت له المصادفة السعيدة لقاء عالم لماح أحاطه معرفة بعلمى الجبر والميكانيكا الجديدين . وبعد أن لاحظ طرائق أصحاب الجبر المعقدة، وبعد أن قام بتبسيطها استجابة لطبيعته النازعة إلى الوضوح ، أخذ يستشف منهجاً جديداً يمكن اصطناعه وتطبيقه مهما اختلفت موضوعات البحث . وبعد أن كمل هذا المنهج تدريجياً ، عمل على تطبيقه على الهندسة والميكانيكا والفيزيقا والفلك والبيولوجيا الميتافيزيقا والأخلاق . ولقى فى الطريق كشوفاً كثيرة تستحق أن تذكر ، وكان نجاحه دائماً مهمازاً لهمته يستحثها على مواصلة البحث والكشف . وأعرض عن معرفة كل شئ ، كما كان مطمح السابقين ، وقصر جهده على أنفع المعارف فى هذه الحياة ، جاعلاً مطمحه الدائم وضوح الرؤية لأعماله والسير مطمئناً فى حياته . واقتنع أنه لتحقيق هذه الغاية لابد من العلم ، العلم الذى يجعل الإنسان سيداً على الطبيعة ، ويمكنه من التغلب على جميع الصعاب ، ويعينه على أن يقهر الموت نفسه.

## ١ - سيرة ديكارت :

نكتفى هنا بنبذة موجزة عن هذا الفيلسوف الذى لا تعدو حياته أن تكون مغامرات فكرية ليس للأحداث الخارجية فيها إلا مكان ضئيل .

لقد كان على الكثيرين من كبار الفلاسفة أن ينتظروا ردحاً من الزمن قبل أن يشهدوا نجاح مذاهبهم ، وغالباً ما كانوا يرحلون عن الدنيا دون أن يتاح لهم أن يعرفوا من مظاهر هذا النجاح شيئاً . أما ديكارت فقد أصاب من ذلك ما لم يكن يقع له فى حسبان : أثباته الحدسى لحقيقة الأنا المفكرة (الكوجيتو) ، واكتشافه الرياضى الرائع (تطبيق الجبر على الهندسة والميكانيكا) ، ورحابة منهجه ، وطرافة فروضه ، وقوة تدليله على وجود الله ، ومبادرته إلى استعمال الكشوف الحديثة عن علم الفلك ودورة الدم - كل أولئك قد فتح أمام أعين المفكرين آفاقاً بديعة ، ويسر لفلسفته أن تجتذب العقول الحائرة بعد أن ضاقت بالمجادلات العقيمة بين النظار والباحثين .

كان ديكارت عالماً هندسياً كبيراً : اخترع «الهندسية التحليلية» ؛ وكان عالماً طبيعياً كبيراً أيضاً : كتب الرسائل فى «البصريات» ، و«الآثار العلوية ، والميكانيكا» . ويعد ديكارت زعيم المذهب العقلى فى الفلسفة ؛ هو أول من ألف الكتب الفلسفية باللغة الفرنسية . وأشهر كتبه «المقال فى المنهج» و «التأملات فى الفلسفة الأولى» و «رسالة فى أنفعالات النفس»

و«مبادئ الفلسفة» . وقد لقب ديكارت «بأبى الفلسفة الحديثة» ، وأغلب الفلاسفة المحدثين ، مهما تختلف نزعاتهم ومهما تتشعب مسالكهم ، هم تلاميذه وأبناؤه الروحيون .

ولد «رنيه ديكارت» في الطريق بين «شاتلرو» و «لاهي» (بمقاطعة التورين) فى ٣١ من مارس ١٥٩٦ . وتعلم فى مدرسة «لافليش» على أيدى اليسوعيين (١٦٠٤ - ١٦١٢) . ولما أتم دراساته بها وعمره ست عشرة سنة ، ظل متردداً في اختيار طريقة حياته طوال اثنى عشر عاماً ، فتارة يخالط الناس وتارة يخلو إلى نفسه فى عزلة مؤقتة ، وأخرى نراه منخرطاً فى سلك الجندية ، أو متنقلاً في كثير من البلاد الأوربية . وأخيراً قرر فيما بينه وبين نفسه أن ينقطع للبحث عن الحقيقة فى العلوم ؛ فإذا به يغادر فرنسا نهائياً وبلا رجعة ، ويذهب إلى هولندا التماساً للهدوء وللحرية بعد أن عز عليه أن يجدهما فى وطنه (١٦٢٩) ؛ وفى هولندا لبث الفيلسوف عشرين سنة . وفى سنة ١٦٤٩ غادرها إلى استكهلم ، استجابة لإلحاح الملكة «كريستين» ملكة السويد ، ومات هنالك بعد أشهر قلائل فى ١١ من فبراير سنة ١٦٥٠ وعمره ثلاث وخمسون سنة[١] .

---

(١) أنظر مقالنا عن «التأملات فى الفلسفة الأولى» لديكارت - فى «تراث الإنسانية المجلد الأول» ، العددان الأول والثانى ، يناير وفبراير ١٩٦٣) .

## ٢ - فلسفة ديكارت :

(أ) أكبر مؤلفات ديكارت الفلسفية كتابه «مقال فى المنهج» نشره سنة ١٦٣٧ باللغة الفرنسية ، وكان فى نشره بهذه اللغة ثورة على العرف المألوف بين المفكرين والعلماء ، وهو يبرر هذه الثورة بقوله : «إذا كنت أكتب اللغة الفرنسية التى هى لغة بلادى ، بدلاً من أن أكتب باللغة اللاتينية التى هى لغة أساتذتى ، فذلك لأننى آمل أن هؤلاء الذين لا يستعينون إلا بعقولهم الفطرية الخالصة سيحكمون على آرائى حكماً أفضل من حكم أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالكتب القديمة» .

والكتابات التاليان كتبهما باللاتينية للمتخصصين : «التأملات فى الفلسفة الأولى» (١٦٤١) و «مبادئ الفلسفة» (١٦٤٤) .

وطلبت إليه تلميذته «الأميرة اليزابث» أن يكتب فى أحوال النفس والأخلاق ، فألف بالفرنسية رسالة موجزة «فى انفعالات النفس» نشرت سنة ١٦٤٩ .

وكان قد ألف فى شبابه كراسة باللاتينية بعنوان «قواعد لهداية الذهن» ، نشرت غير مكتملة بعد وفاته . وكذلك بذل جهداً كبيراً فى تأليف «رسالة فى العالم» أو «رسالة فى الضوء» يليها «رسالة فى الإنسان»، وفيها ذهب إلى أن الأرض تدور حول الشمس . ولما علم بأن جاليليو قد حكم عليه وزج به فى السجن لقوله بهذا ، أمسك عن نشر

الكتاب ، فلم ير النور إلا بعد وفاته بأكثر من ربع قرن . ولكنه انتزع منه ثلاث رسائل صغيرة جعل «المقال فى المنهج» تصديراً ومقدمة لها ، وهى: «البصريات» و «الآثار العلوية» و «الهندسة» .

(ب) المنهج : ان ديكارت قد فكر في أن يجعل عنوان «المقال فى المنهج» : «مشروع علم كلى يستطيع أن يرفع طبيعتنا إلى أعلى درجات كمالها» ويرمى المنهج الذى استكشفه إلى غرضين نظرى وعملى : فهو ييسر «البحث عن الحقيقة فى العلوم» وييسر لكل إنسان «أن يحسن قيادة حياته» .

وهذا المنهج الكلى الشامل لا يعتمد على المنطق القديم : لأن «القياس» الذى يقتصر فيه على استخلاص النتيجة من قضايا مسلمة من قبل ، هو «أدنى إلى أن ينفع فى أن الشرح للغير ما نعرف من الأمور» لا أن نتعلم تلك الأمور ولا أن نجد حقائق جديدة لم نكن نعرفها . والمنهج الجديد يجب أن يستلهم المناهج التى تستعملها الرياضيات ، ولكنه يجب أن يكون أعم منها . وهو يعتمد على عمليتين ذهنيتين على الأصالة : «الحدس» و «الاستنباط» والحدس هو الإدراك الذهنى المباشر لحقيقة مستكفية بذاتها وتفرض ذاتها أطلاقاً : مثال ذلك أنى كائن مفكر ، وأن المثلث ذو أضلاع ثلاثة . أما الاستنباط فهو «الحركة المتصلة ، غير المنقطعة، حركة فكر يدرك كل شئ ببداهة» . وهو يدرك الرابطة الضرورية التى تربط بين حقيقتين وجدناهما بالحدس - والمنهج عبارة عن

أن نستعمل الحدس والاستنباط استعمالاً حسناً (قواعد لهداية الذهن) .

وفيما يلى عرض موجز للقـواعد الأربع المبسوطة فى القسم الثانى من كتاب «مقال فى المنهج» : القاعدة الأولى : أن لا أتقبل شيئاً قط على أنه حق ما لم أتبين بالبداهة أنه كذلك بمـعنى أن أتجنب التعجل والسبق إلى الحكم ، وأن لا أدخل فـى أحكامى إلا مـا يـعـرض لذهنى بقـــدر من الوضوح والتـميز لا يدع لى سبـباً لوضعــه موضع الشك» . وبداية هذه الفقرة ذات أهمية كبيرة : منذ اليوم يصبح العقل وحده صاحب السلطان؛ وهذا هو الرفض الصـريح لسلطة القدمـاء ، وهو الوداع الأخيـر للعـصر الوسيط ، وهو الإعلان على رءوس الأشهاد لحقوق الفكر الحر الجرئ .

والبداهة التى يتحدث الفيلسوف عنها هنا لم تعد هى البداهة الحسية، بداهة ما يسمى بالأمر الواقع المحسوس ، أنما هى البداهة العقلية تلك التى تضئ ذهنى أمام القضايا الرياضيــة . والحدس العقلى يجعلنى أدرك أفكاراً «واضحـة» أى أفكاراً تفرض نفسـها على كل ذهن واع منتبـه ، ويجعلنى أدرك أفكاراً «مـتمـيزة» ، أى أفكاراً بلغت من الجـلاء والدقة والوضـوح بحيث أن أحداً لا يستطيع أن يخلط أحداها بأخرى . الواجب الأول إذن أن نستبعـد من أذهاننا كل فكرة «مسبقة» ، لأن مثل هـذه الأفكار المسبقة ليـست بديهيـة على الأطلاق . والواجب الثـانى أن نتجنب بكل مـا فى وسعنا التعجل فى أطلاق الأحام ، وعليـنا أن نصبر وأن ننتظر حتى يجد الذهن نفسه أمام بداهة قاهرة .

والقاعدة الثانية توصى بأن «أقسم كل واحدة من المعضلات التى سأختبرها إلى أجزاء بقدر ما في الوسع ، وبقدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه» . والتحليل هنا مثالي ، شبيه بتحليل العالم الرياضي الذى يحلل النظرية إلى عناصرها . فمثلاً عالم الطبيعة الديكارتى يحلل الضوء ، وهو من المعطيات الحسية ، إلى حركات ، أفكار واضحة ومتميزة .

والقاعدة الثالثة ، التى تعتمد كالثانية على الاستنباط ، توصى بأن «نقود أفكارنا بترتيب ، مبتدئين من أبسط المعطيات وأيسرها معرفة» . وهذا تأليف مثالي ، شبيه بتأليف الرياضى الذى يجمع بين تعاريف وبديهيات ، لكى يبرهن على صحة نظريته . مثلاً عالم الطبيعة الديكارتى يجمع الحركات بحيث يفسر الظواهر البصرية . ويمضى ديكارت فيقول بأن القاعدة توصينا أيضاً بأن «نفترض ، مؤقتاً ، ترتيباً بين الأفكار التى لا يسبق بعضها بعضاً بالطبع» . والفرض له هنا مكانه إلى جانب التأليف .

والقاعدة الرابعة : «أن أعمل فى جميع الأحوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلنى على يقين من أننى لم أغفل شيئاً» . وحين ينطبق هذا الاحصاء على المعطيات الحسية يصبح هو الاستنباط التجريبى . ولتفصيل هذه العمليات يشير ديكارت إلى فرنسيس بيكون . ومع أن ديكارت كان يجب أن يخضع كل شئ لاستنباط عقلى ،

إلا أنه لم يغفل عن قيمة التجربة . لقد لاحظ وجرب طوال حياته ، وقام بتشريحات كثيرة ، وكان دائماً على دراية بأعمال غيره في العلم . والتجربة تيسر لنا أن نضع المشكلة : مثلاً مشكلة الضوء ، بأن نحصى أولاً جميع الظواهر الضوئية . ثم أنها تيسر لنا أن نعرف أى المعادلات الجبرية تطابق ظواهر فيزيقية . وإذا كان الله من الناحية الميتافيزيقية لم يحقق إلا عدداً معيناً من الممكنات ، فالتجربة وحدها تيسر لنا أن نعرف أى الممكنات قد حققها الله بالفعل .

والمنهج ، معرفاً على هذا النحو ، يجعل العلم فى متناول الجميع : لأن ديكارت يؤكد فى أول فقرة من المقال أن «العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس» . الذوق السليم هو العقل ، أى «القوة على الحكم الصحيح وتمييز الحق من الباطل» وهى قوة فطرية موفورة للناس جميعاً ، والذى ينقصهم أنما هو المنهج : «لأنه ليس يكفى أن يكون للإنسان ذهن جيد ، ولكن الأهم أن نستعمله استعمالاً جيداً» .

والخطوة الأولى التى يقضى بها المنهج هى أن نشك مؤقتاً فى جميع الأفكار التى سبق لنا أن تلقيناها بالتسليم . وهذا الشك يضع مشكلة أخرى تمهيدية .

(ج) الأخلاق المؤقتة : يستطيع الإنسان مطمئناً أن يوقف حكمه فى مجال الفكر ولكنه لا يستطيع أن يوقف عمله إلى غير نهاية ؛ «فإن أعمال الحياة لا تحتمل أى تأخير» . وفى مواجهة الظروف المتغيرة يجب أن يقول

الإنسان : «نعـم» أو أن يقول : «لا» ؛ ويجب أن يعرف لـم يقول هذه القولة أو تلك . فالشك ، إذ يوقع الاضطراب فى الوجود ، يهدد بالخطر النشاط الذهنى نفسه . وإذن فانتظاراً لأن تهيئ لنا الفلسفة والعلم أن نقيم أخلاقاً «نهائية» . فإن أخلاقاً «مـؤقتة» لابد من اصطناعها ريثما تصل إلى يقين . وفى القسم الثالث من «المقال» يذكر لنا ديكارت القواعد الثلاث أو الأربع التى تيسر له أن يحيا حياة سـعيدة بقدر ما فى الإمكان ، أى حياة الهدوء اللازم لبحوثه .

والقاعـدة الأولى : «أن أطيع قوانين بلادى وعاداتهـا ، وأن أحرص على مراعاة دينها ، وأن أتجنب جـميع ضروب التطرف والأفراط ، وعلى الخصـوص أن أتجنب الوعود التي بهـا يستـقطع المرء جزءاً من حـريته . وعلى هذا النحو لا يكون الفيلسوف عرضة لأن تزعجه المتاعب مع الناس، ويستطيع أن يصون استقلاله .

والقاعدة الثانية : «أن أكون أشد ما يمكن تصميماً فى أفعالى ، وأن لا يكون استـمساكى بأشد الآراء عـرضة للشك ، إذا ما صـحت عزيمتى عليها أقل ثباتاً مما لو كانت من أشد الآراء وضوحاً . وأن أحتذى فى هذا مثل المسافرين الذين يجدون أنفـسهم قد ضلوا فى بعض الغابات ، عليهم أن لا يضربوا فيـها التواء هاهنا مرة هاهنا مـرة أخرى . وشر من هذا أن يقفوا فى مكان واحد لا يبرحونه . ولكن يلزمهم أن يـسيروا دائماً أكثر ما يستطيعوا استقامة نحو جهة واحدة . . .» . فالمتجول الذى ضل طريقه فى

غابة يجب عليـه أن لا يدور حول نفسـه بل أن يختار اتجـاهاً واحداً وأن يسير فيـه سيراً مستقيـماً إلى غايته فهو إذا لـم ينتـه من سيره إلى حيث يرغب فهو على الأقل لابد أن يصل إلى مكان يكون فيه أفضل مما لو ظل في وسط الغابة . هذه القاعدة تجنب الفيلسوف المتاعب الناشئة من التردد، وتجنبه مـشاعر القلق والندم ولوم النفس وتأنيبـها، وهى مشاعـر النفوس الضعيفة المتقلبة التى ما تكاد تبرم أمراً حتى تنقضه، وتغير طريقها لأوهى الأسباب !

والقاعدة الثالثة : «أن أسعى دائماً إلى مـغالبة نفسى بدلاً من مغالبة المقادير ، وأن أغيـر رغباتى بدلاً من أن أغير نظـام العالم . وبالجملة أن أوطن نفـسى على الاعـتـقاد بأنه مـا من شئ نقـدر عليـه قدرة تامـة إلا أفكارنا» .

وإذا كانت الـقاعدة الأولى تطـابق سلوك الأبيقـوريين وكثيـرين من الشكاك ، فـالقاعدتان الأخـريان فيـهما نفـحات من الرواقـية . وإذا تم للفـيلسوف أن يصطنع هـذه الأخلاق اسـتطاع أن يحقق الهـدوء المطلوب لخلوة الفكر ، وأن يستخـدم حياته كلها فى تثقيف عـقله فى «التقدم على قدر ما يستطيع فى معرفة الحقيقة» .

(د) الميتافيزيقا : وقواعد المنهج تتيح لنا الآن أن نسعى إلى حل أهم المشكلات . وفى القسم الرابع مـن «المقال» وفي «التأملات» وفى «مـبادئ الفلسفة» يعرض لنا ديكارت أسس ميتافيزيقاه .

وفقاً لمطالب المنهج نراه ينقد جميع الأفكار الشائعة ، ما عدا قواعد الأخلاق المؤقتة ، وعقائد الدين ، والمبادئ الأساسية للدولة : فيشك في وجود العالم الخارجي : «أننا نعرفه بحواسنا والحواس عرضة للخطأ . والاحساس الذى لدينا فى اليقظة يشبه الحلم الذى يكون لنا فى النوم . ويتحدث ديكارت هنا حديث فيلسوف مثالى ، إذا أخذنا المثالية على معنى النظرية التى تنفى وجود عالم خارجى مستقلاً عن وعينا» . ويشك ديكارت أيضاً فى قيمة جميع استدلالاتنا : «وسرعان ما انتبهت بعد ذلك إلى أننى حينما أردت أن أفكر فى أن كل شئ زائف فلابد بالضرورة أن أكون ، أنا الذى أفكر ، شيئاً . ولما انتبهت إلى أن هذه الحقيقة : أفكر، فأنا إذن موجود ، هى من المتانة والوثوق بحيث أن أشد افتراضات الشكاك شططاً لا تقوى على تزعزعها ، حكمت أننى أستطيع مطمئناً أن أتقبلها على أنها المبدأ الأول للفلسفة التى كنت أطلبها» .

وعلى هذا النحو أخرج ديكارت من الشك نفسه هذا اليقين : أنا قائم (أو موجود) باعتبارى كائناً مفكراً . وهذا الاستدلال مقصور على التعبير عن حدس مباشر .

والنفس تعرف ببداهة ، بينما العالم الخارجى ، والجسم جزء منه ، لا يزال مشكوكاً فيه : فالنفس إذن متميزة عن الجسم وتستطيع أن تبقى بعد فنائه . وهذا «الأمل الجميل» هو قصارى ما تستطيع الفلسفة أن تزودنا به . وحال النفس بعد الموت هو موضوع اعتقاد لا برهان عليه .

ويمضى الفيلسوف باحثاً عن بداهات أخرى . خطر له أن المعرفة أكمل من الشك ، فاستكشف فى نفسه فكرة الكامل . واعتماداً على هذه الفكرة شرع فى أثبات وجود «الكائن الكامل» ، أى الله . أولاً ، «فكرة الكامل» يجب أن يكون لها علة ، ولابد أن يكون فى العلة من الوجود الواقعى على الأقل قدر ما فى المعلول : فهذه الفكرة إذن لا يمكن أن تجئ من الذهن الناقص . ولابد أنها وضعت فينا ، وضعها كائن كامل . وأيضاً أنا الكائن الناقص الذى فى نفسه فكرة الكامل ، من أوجدنى ؟ لو أننى أوجدت نفسى لكنت منحت نفسى جميع صفات الكمال التى لدى فكرة عنها . وليس الأمر كذلك . وإذن فأنا لم أوجد نفسى ، وأنما أوجدنى الكائن الذى وضع فى فكرة الكامل ، أى أوجدنى الكائن الكامل - والدليل الثالث على وجود الله أطرف هذه الأدلة جميعاً ، وأن يكن قد سبق إليه القديس «أنسلم» : «لما عدت إلى النظر فى الفكرة التى كانت لدى عن الكائن الكامل ، وجدت أن الوجود متضمن فيها على نحو ما يكون متضمناً فى فكرة المثلث أن زواياه الثلاث مساوية لقائمتين. . . بل على نحو أكثر بداهة» . فالله ، بالتعريف ، هو الكائن الكامل الذى يملك جمع ضروب الكمال ؛ بيد أن الوجود كمال ، وإذن فالله موجود - ويطلق اسم «الدليل الأنطولوجى» على ذلك الدليل الذى يستخرج من ماهية الله ذاتها توكيد وجوده .

وهذه الأدلة لا يعمد إليها إلا لايصال «حدس» إلى الآخرين ،

حـدس أعمق من حـدس «الكوجـيتـو» حدس الـكائن الكامل ، الكائن اللامـتناهى . «وأنى أرى بجلاء أن الجـوهر اللامتناهى فـيه من الـوجود الواقعى أكـثر مما هو فى الجـوهر اللامتناهى . وبناء على ذلـك أجد على نحو ما أن فكرة اللامتناهى سابقة لدى على فكرة المتناهى ، أى أن أدراك الله سابق علـى إدراك نفسى . الله مالك لجـميع ضـروب الكمال ؛ هو إرادة لا متناهية ، وعقل لا متناه ، وهو واسع كريم ، وكرم الله يمنعه من أن يضللنا : فـلا يمكن أن يكون قد أعطانا من الحـواس ما يخـدعنا على الدوام . و «الصدق الإلهى» يبرر الاعتقـاد بوجود العالم الخارجى : فهذا العالم خلقـه الله ؛ وبقاؤه بفضل منه ، لأن الفعل الخـالق «قديم» أى تم منذ الأزل . وبقاء العالم أنما هو خلق متصل .

والآن نستطيع أن ندرس عـالم الأجسام وعـالم النفوس : «الفلسفة كلها كشجرة جذورها الميتافيزيقا ، وجذعها الفيزيقا ، والفروع التى تخرج من هذا الجـذع هى جـميـع العلوم الأخـرى التى تنتـهى إلى ثلاثة علوم رئيسية، هى الطب والميكانيكا والأخلاق ، أقصد الأخلاق الأرفع والأكمل التى لما كانت تفـترض معرفـة تامة بالعلوم الأخرى ، فقـد بلغت المرتبة الأخيرة من مراتب الحكمة» .

(هـ) الفيزيقا : فـيزيقا ديكارت مبسوطة فى كـتاب« العالم» وكذلك فى صـورة مـحجـوبة بعض الشئ فـى القسـمين الخـامس والسـادس من «المقال»، وفى عدة أبواب من «المبادئ» . والقسم الأول من الكتاب الأخير

وعنوانه «مبـادئ المعرفة البـشرية» يحوى على التـقريب ما يحويه كـتاب «التأملات» وفى القـسم الثانى ، وعنوانه «مبادئ الأشيـاء المادية» يبين فيه لم يعتبـر الأجسام إلا مادة ممتدة طولاً وعـرضاً وعمقاً ولم لم يعـتبر فى تغيراتها المتعاقبة إلا حركـات خاضعة لبعض قوانين بسيطة جداً . وعنوان الجزء الثـالث «فى عالم الحس» وهو بحث فى الميكانيكا السـماوية يصف فيـه حركة الأرض والكواكب الأخـرى حول الشـمس . . . وعنوان الجزء الرابع «فى الأرض» ويفسر فيه الثقل والمد والجزر وخواص المغناطيس . . . الخ . وينفى الجاذبية بين الأجسام ، لأن فكرة الجاذبية فكرة مبهمة .

ويريد ديكارت فى فيـزيقاه على العمـوم أن يستعـيض عن المعطيات الحسية ببداهات عقلية : ومن هنا رأينا عنده هندسة وقد أصبحت فرعاً من الجبر ، وفيـزيقا وقد أصبحت فرعاً من الريـاضة . وأن قطعة الشمع إذا سخنت تفقد جـميع خواصها ما عدا الامتداد . «ولنأخـذ مثلاً هذه القطعة من شمع العـسل : لقد أخذت لتـوها من الخلية ، فلم تذهب عنهـا بعد حلاوة العسل الذى كـان فيها . ومازالت بهـا بقية من أريج الزهور التى اقتطفت منها ؛ لونها وحـجمها وشكلها أشياء ظاهرة للعـيان وهى جامدة وباردة ، ويسهل عليك أن تتناولهـا باليد ؛ وإذا نقرت عليهـا خرج منها صوت ؛ وعلى الجملـة نجد فيها جـميع الأشياء التى تجعلـنا نعرف الجسم معرفة مـتميزة . ولكن هاهى ذى قد اقتـربت من النار وأنا أتكلم . فماذا أشاهد ؟ تتلاشى بقـية طعمها وتذهـب رائحتها ، ويتغـير لونها ويذهب

شكلها ، ويـزيد حجمـها ، وتصـبح من السوائل ، وتسخـن حتى يكاد يصعب لمسها ، ومهما نقرت عليها ينبعث منها صوت . أما تزال الشمعة باقيـة بعد هذه التـغيرات كلهـا ؟ لابد من التسليم بأنهـا باقيـة ولا أحد يستطيع أن ينكر ذلك أو يحكم حكمـاً مخـالفاً . . . ولننظر فى الأمـر بامعان : لنستبعد كل ما ليس من خـواص الشمعُة ، لنرى ما يتبقى بعد ذلك . لا يبـقى حقـاً إلا شئ ممتـد لين متـحرك . . .» والآن مـا ذلك الامتداد ؟ أليس هو غير معـروف أيضاً ؟ لأنه يزيد عند ذوبان الشمعة ، ويزيد عند غليانهـا ، ويزيد أيضاً بزيادة حرارتها ؟ «فأنا لا أتصـور ماهية الشمعة تصوراً واضحاً مطابقاً للحـقيقة إن لم أفترض أن هذه القطعة التى نحن بصددها قابلة لأنحاء شتى من الامتداد لم تخطر على خيالى . وإذن فلابد من التسليم بأنه ليس فى مقدورى أن أدرك بالخيال ماهية هذه القطعة من الشمع ، وأنما الذى يدركها ذهنى وحده» .

وإذن فالامتداد ، وهو معطاة واضحة متميزة ، هو ماهية المادة ؛ المادة لهـا جمـيع خـواص الامـتداد ؛ والعـالم بلا حـدود ، وبلا عناصـر ، ومـتـصل. فى هـذا الفـضـاء الملاء ، كل حـركـة دائريـة : هذه نظرية «الدوامات» . وفى هذا الـكون الذى خلقه الله الصمـد الذى لا يتغـير ، تبقى كميـة الحركة بلا نقصان . والنبات ، بل الحـيوان نفسه ، ليس إلا آلات (ماكـينات) . وكل مشكلة فـيزيقيـة يجب أن تأخذ مظهـر مشكلة رياضية . ويوماً سيكون كل العلم عبارة عن رياضة شاملة .

وهذه الفلسفة العملية ، وهى المختلفة كل الاختلاف عن الفلسفة النظرية التى ظلت تعلم فى المدارس حتى وقت ديكارت ، ستجعل الناس آخر الأمر «سادة على الطبيعة مالكين لها» : ذلك أننا إذا عرفنا بها ما للنار والماء والهواء والكواكب والسماوات وكل الأجرام الأخرى التى تحيط بنا من قوة وأثر معرفة متميزة كما نعرف مهن صناعنا المختلفة ، فإننا نستطيع استعمالها بنفس الطريقة فى كل المنافع التى تصلح لها .

(و) النفس : أما فيما يتعلق بالنفس فإن ديكارت يفرق بين الفكر بما هو منفعل ، أى الذهن ، والفكر بما هو فاعل ، أى الإرادة . وهو يقابل فى الذهن بين «الأفكار العارضة» التى تجئ من الخارج (أى المعطيات الحسية) و «الأفكار المصطنعة» التى يبتدعها الخيال ، وبين «الأفكار المفطورة» التى أودعها الله فينا ، كالفكر ، واللامتناهى ، والكامل ، والأوليات الرياضية . ولكنه يفسر ذلك بأنه سمى هذه الأفكار «مفطورة» على معنى ما نقول بأن السخاء مفطور فى بعض العائلات أو أن أمراضاً مختلفة مفطورة فى عائلات أخرى . ولا نعنى بذلك أن الأطفال مصابون بهذه الأمراض فى بطون أمهاتهم ، بل أنهم يولدون وبهم استعداد لها .

والإرادة عند ديكارت هى القدرة على الاختيار الحر . ولقد ناصر ديكارت حرية الإرادة الإنسانية مناصرة صريحة لا مواربة فيها . أننا نعرف حرية إرادتنا بتجربة داخلية دون حاجة إلى شهادة من الخارج . والإرادة هى القدرة على الحكم أيضاً : لأن الحكم يتضمن اختياراً بين قول إيجابى

وقول سلبي . وإذن فنحن المسئولون عن أخطائنا : أننا نخطئ حين نريد أن نحكم قبل أن نتثبت ، وقبل أن يكون لدينا نور كاف ييسر لنا وضوح الرؤية . والخطأ أشبه بمعركة خسرناها ؛ في حين أن بلوغ الحقيقة يمثل انتصار إرادتنا على جحافل الظلام .

وفي النفس تنشأ أحوال وجدانية ، سببها تغيرات تلم بالجسم ، وحركات «أجزاء من الدم رقيقة جداً» يسميها الفيلسوف بـ «الأرواح الحيوانية» . وقد عكف على دراسة هذه الأحوال الوجدانية في رسالته عن «انفعالات النفس» ؛ ففسرها تفسيراً يمكن أن نطلق اليوم عليه اسم التفسير «السيكوفيريولوجي» . وضرب لذلك مثلاً انفعال «الحب» ، وفيه تكون «دقات النبض أكثر وأشد مما هو معتاد ، ويحس الإنسان حرارة رقيقة في الصدر ، ويتم هضم اللحوم في يسر ؛ ولذلك كان هذا الانفعال نافعاً لصحة الإنسان» .

وقد ميز ديكارت في النفس ستة انفعالات أساسية هي قوام سائرها : «الإعجاب» (أي الدهشة المثيرة للانتباه) ؛ و «الحب» وقوامه الجاذبية ؛ و«البغض» وقوامه النفور ؛ و «الرغبة» المتجهة إلى المستقبل ؛ و «الفرح» الناشئ من أرضاء الرغبة ؛ و «الحزن» ومصدره عدم أرضائها .

(ز) الأخلاق النهائية : ولابد ، أتماماً وتتويجاً للفلسفة الديكارتية ، من ظهور أخلاق نهائية «تفترض معرفة تامة بالعلوم الأخرى» . وقد كانت الأخلاق هي الشغل الشاغل لهذا المفكر صاحب الرسالة الإنسانية

على الأصالة ، والذى عـرف الفلسفة وفقـاً لتعريف القدماء بـأنها دراسة الحكمة . وإذا كان الفيلسوف قـد رحل عن هذا العالم قبل أن يتاح له أن يكتب هذه التتمـة المنطقية لمذهبه ، فإن الباحث المدقق يسـتطيع أن يهتدى إلى عناصرها المتفرقة فى كتاب «انفـعالات النفس» ، فى كثير من رسائله إلى الأميـرة اليزابث ، وإلى كريستين مـلكة السويد ، وإلى شانو سفـير فرنسا لدى هذه الملكة .

والأخلاق النهائية ما كانت لتـعارض الأخلاق المؤقتة ، لأن المقصود من كل منهـما أن تيسـر للإنسان أن يحـيا حـياة «سعـيدة» بقـدر ما فى الإمكان. ولكن القاعدة الأولى من الأخلاق المؤقتة لم يعد لها الآن مسوغ أو سبب وجود ، مـادام قد أصبح فى مقـدورنا أن نستعيض عن التـقاليد المرعية بالحقائق العقلية التى أقامتها الميـتافيزيقا . أما القاعدتان التاليتان - والهامهمـا من نفحات الرواقية - فمقـدر لهما البقاء والحفـاظ عليهما فى الأخلاق النهائية : لأن فكـرة إرادة قوية ، مصممة على صون اسـتقلالها عن الظروف الخـارجيـة ، فكرة خليـقة أن تظل مـبـدأ ثابتاً من المبـادئ الأساسية . وكل ما فى الأمر أن العلم يزودنا فى المستقبل بوسائل للعمل كانت تنقـصنا فيما مضى مـن الزمن . ودراسة الانفعالات دراسة عـلمية تتيح لنا أن نستيقن من أن الإنسان يستطيع دائماً أن يسيطر على انفعال ما بمعارضته بانفعال آخر (مثال ذلك معارضة الخوف بالطموح) ، أو يستطيع أن يوجه الخيال إلى اتجاه مضاد للانفـعال المستنكر (ومثاله أن يخطر ببالنا

«أن الأمان فى الدفـاع والصمود أكثـر منه فى الهرب أو النكوص» ؛ وأن الكرامة والفرح موفوران فى الانتصار ، «فى حين أننا لا نجنى من التخاذل والفرار غير الندم والعار !» .

ويمضى ديكارت فى تخيله الملهم لعواطف الإنسان وانفـعالاته فيسوقنا إلى هذه النتيجـة المستبشرة المشجعـة إذ يقول : «إن الناس العاديين ، بل إن أضعفهم نفساً وأوهنهم جأشاً يسـتطيعون هم أيضاً أن يكتسبوا سلطاناً واسعاً جـداً على انفعالاتهم جميـعاً ، لو أننا عرفنا السبيل إلى اسـتخدام الحيلة فى تقويمهم وحسن قيادتهم» .

وأكثر مـن هذا ، حين يصير الطب فى المسـتقبل أكثر تقـدماً مما هو عليه الآن ، جسد يتيسـر للإنسان العارف أن يهيمن على الأذهان والأفكار عن طريق الأبدان : «قال الذهن يعـتمد اعـتماداً كبـيراً على المزاج وعلى استعداد أعضاء البدن ، بحيث أنه إذا كان من الممكن أن نجد وسيله تجعل الناس على العموم أحكم وأبرع مما كانوا حتى اليوم ، فاعتقادى أننا يجب أن نلتمسها فى الطب دون سواه» .

وفكرة أخرى رئيسية فى الأخلاق النهائية هى فكرة «الأريحية» : وقد درسها ديكارت فى رسـاله «الانفعالات» ، ودعا إليـها فى «المراسلات» . والأريحية - أو كرم النفس - هى «مفتاح الفضائل الأخرى جميعاً» . أن الرجل الأريحى يجـعل إرادته الحـرة فى خـدمة المجـمـوع : «يجب على الإنسان أن يفكر فى أنه لا يـستطيع أن يعيش أو أن يبـقى وحده ، وأنه

فى واقع الأمر جزء من أجزاء الكون ، وبوجه أخص جزء من أجزاء هذه الأرض ، وجــزء من أجزاء هذه الدولة ، وهذا المجــتمع ، وهذه الأســرة التى أرتبط بهــا بمسكنــه وبعهــده وبمولده . ويـجب علينا دائمــاً أن نؤثر مصالح الكل الذى نحن جزء منه على مصالح أشخاصنا» .

والأريحى يحب الله حباً قوامه الإذعان التام لإرادته ، والشكر المبتهج على نعمته . وهو يبدى حبه لخــالقه ، بالإعجاب ببديع صنعه ، والتأمل فيما أودعه فى العالم من أنسجــام ، والسعى إلى استكشاف حقائق الكون وأسراره .

## ٣ - المقال في المنهج(*) :

### (أ) تحليل «المقال» :

يقع «المقــال» فى ســتة أقســـام : فى القــسم الأول أنظار فى العلوم مختلفـة ؛ وفى الثانى قواعد المنهج ؛ وفى الثالث بعض قــواعد الأخلاق التى استنبطها المؤلف من ذلك المنــهج ؛ وفى الرابع الأدلة التى يثبت بها وجود الله والنفس الإنسانية ؛ وفى الخامس ترتيب مسائل الطبيعيات وفى القسم السادس بيان للأمور المطلوبة فى نظر المؤلف للســير بدراسة الطبيعة إلى أبعد مما انتهت إليه ، وبيان الأسباب التى دعته، إلى الكتابة .

---

(*) أنظر الترجمة العربية بقلم المرحوم الأستاذ محمود الخضيرى ، القاهرة ١٩٣٠

## (١)

وقد استهل ديكارت كتابه ببيان قصده من نشره «أن ما يوقع أشد الخلاف بين الناس ليس هو تفاوتهم فى الذكاء ، فإن العقل أو الذوق السليم يكاد يكون واحداً عند الجميع - بل أن الخلاف ناشئ من توجيه الناس لأذهانهم ، أى من المنهج الذى يتبعونه فى تفكيرهم أو فى حياتهم: فليس يكفى أن يكون للإنسان قريحة جديدة ، بل الأهم أن يستعملها استعمالاً جيداً» .

ويحدثنا الفيلسوف بهذا العدد عن نفسه ، فيقول أن التوفيق قد حالفه فاهتدى إلى منهج حقق له نتائج باهرة ؛ ومن أجل هذا أراد أن يكشف للناس عنه وأن يحيطهم به خبراً . وهو لا يريد أن يفرضه على الناس فرضاً ، وأنما أراد أن يقترحه لهم مثلاً يحتذى ، و «أن يمثل حياته فيه كأنها فى لوحة تصوير ، لكى يتيسر لكل واحداً أن يحكم فيها جكمه» .

وفى القصة التى رواها بعد ذلك عن وجوده العقلى أخذ يبين أنه لما كان مولعاً بالبحث عن الحقيقة ، فقد التمسها أولاً فى الكتب ، وفى العلوم التى يعلمونها فى المدارس ، فلم يجد لها أثراً . وليس مرجع ذلك إلى أن هذه العلوم قد خلت من الميزات والجوانب الطيبة ، فقد أخذ يستعرضها أمام القارئ مبيناً ما فيها من فوائد ، فقال : أن اللغات ضرورية لفهم كتب القدماء ؛ والأساطير بما فيها براعة الخيال توقظ

الأذهان ؛ والتاريخ متى قرأناه بقدر من الأحتياط يعيننا على تكوين ملكة الحكم . وقراءة المؤلفين الجيدين أشبه بحديث مع أفضل أهل القرون الماضية ؛ بل هو حديث مدروس موصول لا يكشفون فيه إلا عن أحسن خواطرهم وأفكارهم . وللفصاحة قوة وجمال لا نظير لهما ؛ وللشعر فنون من الرقة والملاحة رائعة ؛ وللرياضيات اختراعات بارعة جداً يمكن أن تستخدم لتيسير جميع الفنون ؛ وكتب الأخلاق تحتوى على تعاليم نافعة جداً ، واللاهوت يعلم السبيل إلى الفوز بالجنة ، والفلسفة تعطى الوسيلة للتكلم عن جميع الأشياء كلاماً شبيهاً بالحق ، وتجعل الإنسان يحظى بأعجاب من هم أقل علماً ، والفقه والطب يجلبان الجاه والمال لمن يشتغلون بهما ، وأخيراً من الخير أن نعرف أشد العلوم أغراقاً فى الخزعبلات وأكثرها زيفاً لكى نتحرز من الأنخداع بها .

ولكن مهما يكن من منفعة هذه العلوم من وجهات النظر العديدة هذه، فهى غير كافية لمن يلتمس الكشف عن الحقيقة . ولكى يبين لنا ديكارت ذلك أعاد النظر فيها على الترتيب ، فقال : أن الإنسان لا يستطيع أن يقضى حياته فى مطالعة كتب قديمة أو قراءة حكايات ؛ كما لا ينبغى أن نتفق فى السفر والارتحال وقتاً أطول مما يلزم ، والتاريخ الذى لا يمثل الماضى كله أبداً ، بل يضرب صفحاً بالضرورة عن الظروف الوضيعة والأقل تألقاً ، من شأنه إذا أسئ استعماله أن يفسد الحكم ؛ والشعر والفصاحة ليسا ثمرات للدرس بقدر ما هما موهبتان من مواهب الطبيعة ؛

والعبقرية ضرورية للنبوغ فيهما ، وهى كافية حتى لو لم يعرف الإنسان غير اللغة العامية الدارجة . أما الرياضيات فلم يكن ديكارت قد رأى بعد استعمالها الصحيح ،. وأظهر العجب من أن أحداً لم يبن على أسس بهذه المتانة شيئاً ذا قيمة . وكتب الأخلاق كقصور فخمة أقيمت على الرمال والطين : فهى تشيد بالفضائل ولكنها لا تبين لنا كيف نعرفها، وتقدم لنا غالباً أمثلة لا سبيل إلى احتذائها . واللاهوت ليس مما لا يمكن الاستغناء عنه للفوز بالآخرة ، وأجهل الناس ، كأعلمهم ، يخوضون فيه . وأخيراً ما من شئ فى مجال الفلسفة إلا وهو عرضة للنقاش والنزاع : وإذا تعددت الآراء المتناقضة استحال أن تكون كلها صحيحة . أما العلوم الأخرى فمن حيث أن مبادئها معتمدة على الفلسفة فلا يمكن أن تكون أمتن من الفلسفة نفسها .

ولما عز عليه أن يجد الفلسفة فى الكتب التمسها فى غيرها «فى الكتاب الكبير ، كتاب العالم» فشرع فى الأسفار وفى رؤية بلاط الملوك ومعسكرات الجيوش ، وفى مخالطة أناس من مختلف المشارب والطبقات. ولكنه لم يجد فى شئ من ذلك بغيته : لأنه لاحظ من الاختلاف بين أخلاق الناس مثل ما لاحظ من اختلاف بين آراء الفلاسفة . ولكنه ربما أفاد من أسفاره فائدة غير مباشرة ، لأنه إذا لم يكن قد اهتدى إلى الحقيقة فقد تخلص على الأقل من أوهام كثيرة ومسبقات مشهورة ، فإن كثيراً من الأشياء التى تبدو لنا شططاً وسخفاً لا تخلو من أن تكون ذائعة مقبولة

لدى شعــوب أخرى كبـيرة . فـتعلم من هذه التجـربة أن لا يؤمن إيماناً راسخـاً بما لم يتلقه إلا عن طريق التـربية والعادات ، وأن لا يولى نفـيه شيئاً سوى العقل .

وبعد هاتين المحاولتين - غير المثمرتين - قرر الفيلسوف أن يلجأ إلى محاولة ثالثة : أن يدرس فى نفـسه ، وأن يطلب السبل التى كان لابد له من أن يسلكها . وهذا ما قد وفق فيه أكـثر مما كان يوفق لو أنه لم يبتعد قط عن وطنه ولا عن كتبه .

## (٢)

حين بدأ ديكارت النظر فى كتاب العالم لاحظ أولاً أن الأعمال ذات الأجزاء الكثيرة التى صنعتهـا أيدى صناع مختلفين تكون غالب الأمر أقل كمالاً من الأعمال التى صنعهـا رجل واحد . والأعمال التى بدأها وأتمها مهندس واحد تكون عادة أجمل منظراً وأحسن نظاماً من تلك التى أشترك فى ترقيـعها الكثيـرون ، مستـخدمين الجدران القديمـة التى بنيت من قبل لأغراض أخرى . والمدن المنظمة التى يخططها معمارى واحد وهو حر فى براح خال تكون فى العادة أجـمل تأليفاً من المدن العتيـقة التى كانت فى البداية قـرى منثورة ثم صـارت بتعـاقب السنين مدناً كـثيـرة . وإذا كان لأسبرطة تشريع أكمل من تشريـع الشعوب الأخرى فالسبب فى ذلك أنه كان من صنع مشرع واحد ، لا خليطاً من أعـمال مشرعين عديدين . من أجل ذلك «كان طبيـعياً أن يخطر لى أن خير وسـيلة لوضع نظام محكم

فى العلوم والاقتراب بقـدر الإمكان من الحقيقة ، هـى أن نعيد بناء العلم كله ، وأن نتـرك الآراء التى تكونت شـيئـاً فشـيئـاً من مـختلف الميـول والأنحاء، لكى نجمع فى كل متراص الحـقائق التى يستطيع رجل واحد ذو ذهن سليم أن يستكشفها بنفسه .

غيـر أن بعض الصعـوبات تواجهنا هنا ، فـإن من الخطر أن نقلب ماهو قائم قـبل أن نستوثق مما سيقـوم من بعده . ولا جرم أن يكون هذا المنحى وخيم العواقب لو أننا أتبعناه فى أمـور السياسة ، وأردنا أن نصلح الدولة فقلبناها رأساً على عقب لكى نقيـمها من جديد . ويسارع ديكارت إلى التنبيه إلى أن شيئـاً من هذا القبيل لم يخطر له على بال ، ويقول : «لم أكن لأقر أطلاقاً تلك الأمزجـة القلقة المضطربة التى لم يؤهلها نسب ولا مكانه لتدبيـر الشئون العـامة ، وهى لا تبرح تعـمل الفكر فى وضع خطط جديدة لـلأصلاح . ولو تبادر إلى ذهنى أن فى هذا الـكتاب شيـئاً يمكن أن يلحقنى منه شبـهة هذا الجنون لندمت ندماً كثيـراً على الترخيص بنشره» .

ويؤكد لـنا ديكارت أنه ، حتى فى مـجال العلم ، لم يكن ليـخطر على باله أن يتصـدى للإصلاح قط لو أنه وجد من العلمـاء من هم أقدر منه . ولكنه مع الأسف الشـديد وجـد بين أهل العلم من الاختـلاف فى الآراء ما يجعل من المستحيل علينـا أن نتبين من منهم هو أجدر بالاستماع إليـه . وليس بمقـدورنا كذلك أن نعـتـمد علـى الذوق السليم ولا على

العادات الجارية ولا الآراء الشائعة بين الناس «فإن موافقة الكثرة ليست دليلاً ذا شأن على الحقائق التى يعسر كشفها ويدق فهمها . والأقرب إلى الاحتمال أن يجدها رجل واحد من أن تجدها أمة بأسرها» . وإذن فقد قرر ديكارت أن يتولى بنفسه أصلاح الفلسفة .

ولكن مشروعاً كهذا يتطلب قدراً من الاحتياط كبيراً . ويجدر بنا أن نحاذر من السير بأسرع مما ينبغى ، وأن نحرص على أن لا نخطو خطوة إلا ونحن على بينة من أمرنا . وبعبارة أخرى يجب علينا أن نستوثق من اعتمادنا على منهج سليم . وهذا المنهج قد استفاده ديكارت من المنطق ومن تحليل أصحاب الهندسة ومن الجبر فاستخلص أربع قواعد تشتمل على ميزات العلوم الثلاثة وتخلو من عيوبها . والقواعد الأربع تنص على ما يلى :

(١) «أن لا أقبل شيئاً قط على أنه حق مالم اتبين بالبداهة أنه كذلك ، بمعنى أن أبذل الجهد فى اجتناب التعجل وعدم التشبث بالأحكام المسبقة ، وأن لا أدخل فى أحكامى إلا ما يتمثل أمام ذهنى فى وضوح وتميز يزول معهما كل شك» .

(٢) «أن أقسم كل واحدة من المعضلات التى أبحثها ما استطعت إلى القسمة سبيلاً ، وبمقدار ما تدعو الحاجة إلى حلها على أحسن الوجوه» .

(٣) «أن أرتب أفكارى ، فأبدأ بأبسط الأمور وأيسرها معرفة ، وأتدرج رويداً رويداً حتى أصل إلى معرفة أكثر تعقيداً ، بل أن أفرض ترتيباً بين الأمور التى لا يسبق بعضها البعض الآخر بالطبع» .

(٤) «أن أعمل فى جميع الأحوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الوافية ما يجعلنى على ثقة من أننى لم أغفل شيئاً يتصل بالمشكلة المعروضة للبحث» .

وبعد أن اهتدى ديكارت إلى هذا المنهج شرع فى تطبيقه على الرياضيات لكى يختبره ويتدرب عليه. وأثمر هذا التطبيق أحسن النتائج ؛ وسرعان ما صار مألوفاً لديه . وقبل أن يشرع فى تطبيقه على الفلسفة رأى أن ينتظر حتى يبلغ من العمر سناً انضج من سنه يومئذ وكانت ثلاثة وعشرين عاماً . وبعد أن عكف على دراسات طويلة انتهى به المطاف إلى تناول المشكلات العويصة ، مشكلات الميتافيزيقا .

(٣)

ومع ذلك فليس من الحكمة أن نهدم دارنا قبل أن نبدأ فى أعادة بنائها ، بل يلزمنا أن نزود أنفسنا بدار أخرى نستطيع أن نسكنها سكناً مريحاً أبان الوقت الذى نشتغل فيه بأعادة البناء . وقياساً على هذا ولكيلا يكون الفيلسوف متردداً فى أفعاله حين يضطره العقل إلى تعليق أحكامه ، رأى أن يضع لنفسه مذهباً أخلاقياً يصطنعه بصفة مؤقتة ، وقوام هذا

المذهب ثلاثة أو أربعة مبادئ :

الأول : أن أطيع قوانين بلادى وعاداتها ، مستمسكاً على الدوام بالدين الذى نشأت عليه بفضل من الله منذ طفولتى . وأن أدبر أمورى فى كل شئ آخر وفقاً لأكثر الآراء اعتدالاً وأبعدها عن الشطط ، والتى أجمع على الرضى بها فى العمل أعقل الناس الذين يتعين على أن أعيش بينهم .

الثاني : أن أكون أكثر ما أستطيع حزماً وتصميماً فى أعمالى ، وأن لا يكون استمساكي بأشد الآراء عرضة للشك ، إذا ما صحت عزيمتى عليها ، أقل ثباتاً مما لو كانت من أشد الآراء وضوحاً . وأحتذى فى هذا مثل المسافرين الذين يجدون أنفسهم قد ضلوا فى بعض الغابات ، عليهم أن لا يضربوا فيها التواء ، ها هنا مرة وها هنا مرة أخرى . وشر من هذا أن يقفوا فى مكان واحد لا يبرحونه ، ولكن عليهم أن يسيروا دائماً أكثر ما يستطيعون استقامة نحو جهة واحدة ، وأن لا يغيروا اتجاههم لأسباب واهية ، ولو لم يكن إلا مجرد اتفاق هو الذى جعلهم أول الأمر يصممون على اختياره ، لأنهم على هذا النحو أن لم ينتهوا إلى حيث يرغبون فهم يبلغون على الأقل بعض الأماكن التى يرجح أن يكونوا فيها خيراً مما لو ظلوا فى وسط غابة .

الثالث : أن أبذل جهدى دائماً فى أن أغالب نفسى بدلاً من أن أغالب المقادير ، وأن أغير ما بنفسى من رغبات لا أن أغير نظام العالم .

وبالجملة أن أتعود الاعتقاد بأننا لا نقدر إلا على أفكارنا قدرة تامة ؛ بحيث أننا إذا فعلنا خير ما نقدر عليه ، فيما يتعلق بالأمور الخارجة عنا ، فإن كل ما ينقصنا بعد ذلك من أسباب النجاح ، هو بالنسبة إلينا مستحيل على الأطلاق . فلا أرغب إلا فيما هو ممكن ، وأذعن لما لابد من وقوعه .

وفي خاتمة هذه الأخلاق ، استعرض ديكارت مختلف مشاغل الناس في هذه الحياة ، فلم يجد أفضل من المشاغل التى أقبل عليها : دراسة الفلسفة : وإذن فهو يمضى فى التمرس على تطبيق منهجه ، وهو واجد في ذلك بالغ الرضى .

وبعد أن أتم له ذلك ؛ بدا له أن يشرع فى التخلص من الآراء التى تلقاها واعتنقها من قبل . وقضى تسع سنوات ، مخالطاً الناس ، جواباً هنا وهناك في العالم ، محاولاً أن يكون «متفرجاً» على جميع المهازل التى تمثل فيه . وأخذ يستأصل من ذهنه جميع الأخطاء التى استطاعت أن تتسلل إليه من قبل . وهو يقول بهذا الصدد : «لم أكن فى ذلك مقلداً الشكاك الذين لا يشكون إلا من أجل الشك والذين يتكلفون أن يظلوا حيارى . فقد كان مقصدى على عكس ذلك أن أستوثق ، وأن أدع الأرض الرخوة والرمل لكى أجد الصخر والصلصال» .

ومع أن ديكارت لم يكن قد عكف بعد على مسائل الفلسفة بمعناها الدقيق ، فقد ذاعت عنه أنباء تفيد أنه قد حقق كشوفاً علمية عظيمة

ولكنه لما كان من الشمم وعزة النفس بحيث يأبى أن يحسبه الناس على ما ليس عليه ، فقد أراد أن يعمل لكى يكون أهلاً لما بلغ عند الناس من حسن السمعة والصيت . فقرر أن يعتزل الناس فى هولندا . وبعد سنوات من البحث والخلو إلى النفس نشر الحقائق الأساسية فى الميتافيزيقا .

(٤)

(١) وإذ صمم ديكارت على أن يبحث عن حقائق لا تتزعزع ، قرر أن يطرح كل ما يمكن أن يتخيل فيه أدنى شك . ولذلك فقد نبذ ما عرفه عن طريق الحواس : لأن الحواس تخدعنا أحياناً . بل أنه أطرح القضايا الرياضية ، لأن الإنسان يقع أحياناً فى متناقضات منطقية ، حين يحاول البرهنة عليها . واطرح أخيراً جميع الخواطر التى وردت إلى ذهنه ، لأنه يحدث لنا أن ترد على أذهاننا هذه الأفكار عينها فى الحلم كورودها فى اليقظة - وهذا ما يسمى «بالشك المنهجى» .

(٢) ولكن فى اللحظة التى يفكر فيها بأن كل شئ زائف تقوم فى وجهه عقبة . هذه القضية : «أفكر ، فأنا إذن موجود» هى من الوثوق والرسوخ بحيث أن جميع افتراضات الشكاك لا تستطيع أن تزعزعها : فيلزم أن يكون هو ، الذى يفكر ، موجوداً - هذا هو المبدأ الأول للفلسفة التى يطلبها .

(٣) أنه قائم لأنه يفكر ، وهو لا يكون إلا من حيث أنه يفكر . إذا وضعنا الفكر ، حتى بغير البدن ، فقد أعطينا الوجود معه ، ولو حذفنا الفكر ، حتى لو تركنا البدن ، فقد اختفى وجود الأنا . ، وبعبارة أخرى ، النفس يمكن أن توجد بدون البدن ، أنها متميزة عن البدن . «أنى جوهر كل طبيعته أو ماهيته ليست إلا التفكير» والنفس معرفتها أيسر من معرفة البدن .

(٤) أما وجد ديكارت قضية يقينية أخذ يتساءل بأى علاقة نستطيع أن نتبين على العموم أن قضية ماهى يقينية . ليس هناك من قاعدة أخرى غير هذه : الأشياء التى نتصورها تصوراً واضحاً جداً ومتميزاً جداً هى كلها حقيقية ، وأنما هناك صعوبة فى ملاحظة أيها نتصوره تصوراً متميزاً . هذا هو معيار الحقيقة .

(٥) وقد لاحظ ديكارت أن الشك نقص، ولكن من أين عرف شيئاً أكمل منه ؟ فكرة الكمال هذه لا يمكن أن تأتى إليه من الحواس . لأن الأفكار التى من هذا القبيل ، أفكار الضوء والحرارة ، ليس فيها شئ يجعلها أعلى منه : ويفسر حضورها بواسطة طبيعة ذهنه أو كماله . ولكن فكرة الكامل التى تجاوزه لا يمكن أن تجئ منه : ويكون مخالفاً للعقل أن نقول أنها تأتى من العدم . وإذن فمن أين تأتى ؟ لم يبق إلا أن نقول أنها قد وضعت فى ذهنه بواسطة طبيعية أو كائن يملك حقاً كل الكمال الذى تكون لديه فكرته ، أى بواسطة الله .

(٦) وقد أضاف ديكارت إلى هذا الدليل على وجـود الله دليلاً ثانياً . أنه موجود ولكنه لم يستطع أن يعطى نفسه الوجود ، لأنه لو كان أعطى نفسه الوجود لكان أعطى نفسه فى الوقت نفسه جميع الكمالات التى تخطر بذهنه : فهـو معتمـد إذن على كائن آخر لا يكون هو نفسه معتمداً على شئ ، أى هو الله - من هذا تنتج وسيلة لتحديد صفات الله ؛ يكفى فى جـمـيع الأشـياء الـتى له عنهـا فكرة أن ينظر هل أمتلاكها كمال أم لا . لا شئ مما يدل على نقص يمكن أن يكون فى الله. وينتج عن هذا أن الله لامـتناه باق ، ثابت ، قـادر ، لا مادى ... الخ .

(٧) ودليل ثالث على وجود الله . يقين الحقائق الرياضـية ليس قائماً إلا على أن نصـورها ببداهة . لو أخـذنا فكرة المثلث لوجدنـا متضـمناً فيـها، ونراه بوضـوح ، أنه يجب أن تكون الزوايا الثلاث مـساوية لقائمتين . فإذا أخـذنا فكرة الكامل رأينا بوضوح كذلك أن الوجود متضمن فيها . لأن الوجود أليس كمالا ؟ - ما تتضمنه فكرة المثلث ليس هو الوجـــود (لأن من الممكن أن لا يكون هنالـك مـثلث فى الواقع) ، بل خاصية وهى أن يكون له زوايا ثلاث مساوية لقائمتين. وبالعكس فكرة الكامل لها هذه الميزة وهى أنها تتضمن الوجود نفسه لا مجرد حالة من الأحوال . وإذن فـالله كائن أو موجود على نحو لا يقل يقيناً عما يمكن أن تكونه براهين الهندسة .

(٨) إذا كان هنالك أناس ليسوا مقتنعين بهذه الحجج ، فيجب أن يتعلموا من ديكارت أن الأشياء الأخرى التى يعتقدون فى أنفسهم أنهم أكثر استيثاقاً منها أن لهم أبداناً وأن هنالك نجوما وأرضاً هى فى الحقيقة أمور أقل يقينا . فلنا فى الأحلام عين ما لنا فى اليقظة من أفكار ، فمن أين نعرف أنها زائفة فى حالة وصحيحة فى حالة أخرى ؟ لا نستطيع أن نفلت من الشك إلا إذا افترضنا وجود الله . والقضية التى أخذناها منذ قليل قاعدة لنا وهى أن ما نتصوره بوضوح هو حق، لا تكون مؤكدة إلا لأن الله موجود . ولأن الله كامل فهو لم يرد أن يخدعنا ، ولأنه لم يرد أن يخدعنا نستطيع أن نثق بالأفكار التى وضعها فينا من حيث هى واضحة متميزة . وحجية العقل والبداهة هى إذن فى أخر الأمر قائمة على صدق الله ، ولا نستطيع أن نعرف أن العالم موجود ما لم نعرف مقدماً أن هنالك ألهاً .

## (٥)

يستطيع ديكارت الآن مستعيناً بالمبادئ التى وضعها منذ قليل أن يفسر الكون كله . وهذا ما قد حاوله في رسالته فى العالم أو فى الضوء التى لم تنشر إلا بعد وفاته . وفي الحقيقة أن ديكارت لم يقصد أن يفسر كيف تكون العالم فى الواقع تاريخياً : أنما أراد أن يبين ما قد كان يمكن أن يحدث لو أن الله أراد أن يخلق المادة من جديد وأن يتركها تتصرف تبعاً للقوانين التى أقامها .

سلم أولاً بأن المادة خلقها الله ، ولم يقصد بالمادة إلا الامتداد ، بغير صورة وبغير أى من الصفات التى تعودنا أن ننسبها إليها . ثم من كمال الله الذى أثبته استنتج قوانين الحركة . ومتى سلمنا بالامتداد والحركة كان علينا أن نفسر ، دون التجاء إلى أى مبدأ جديد ، وبغير حاجة حتى إلى تدخل الله إلا لكى يحفظ على هذه المادة الوجود الذى أعطاها أياه ، أن نفسر كيف تكونت جميع الكائنات التى فى الكون .

بتطبيق قوانين الحركة ، وجب أن يكون للمادة طريقة ما تجعلها شبيهة بالسماوات التى نعرفها ؛ ثم أن بعض أجزائها وجب أن تؤلف الأرض والشمس ، والكواكب . وكذلك يفسر بطريقة آلية ظهور الماء وظهور الهواء ، ومد البحر وجزره وجميع الأجسام التى نراها على الأرض .

وانتقل ديكارت من وصف الأجسام الجامدة والنبات إلى وصف الحيوان ووصف الإنسان بوجه خاص . الحياة تفسر ، عنده دون أن يكون من الضرورى أن نلجأ إلى نفس عاقلة ولا إلى نفس نباتية : حركة الأعضاء الآلية تكفى لتفسير جميع الظواهر الخاصة بالكائنات الحية . لكى يثبت دعواه ، ولكى يضعها فى ضوء ساطع أخذ مثالاً وصف وصفاً مستفيضاً حركات القلب كما كانت معروفة فى زمانه ، بعد أن أكتشف «هارفى» دورة الدم ، وحرص على أن يثبت أن فى حركاته المعقدة غاية التعقيد لا يوجد شئ لا تستطيع الميكانيكا أن تفسره تفسيراً مضبوطاً ، ولا

يوجد شئ يفترض فعل مبدأ لا مادى أو فعل نفس من النفوس . كل شئ يتم كما فى آلة متحركة من ذاتها مضبوطة بأحكام ؛ ونتيجة للحركات التى وصفها ، وبسبب هيئة الأعضاء ، تحرك الأرواح الحيوانية ، وهى الجزء الأكثر لطاقة فى الدم ، وتحمل نحو الرأس ، ومنه تنتشر فى الجسم كله .

وعلى هذا النحو نصل إلى نظرية ديكارت عن آلية الحيوان : أنها نتيجة للمذهب وهى جزء منه لا ينفك عنه . إذا كانت المبادئ التى وضعها ديكارت صحيحة وجب أن تكون الحيوانات كالساعات تكفى اللوالب والعجلات فى تفسير جميع حركاتها : ليس لها ذهن ولا حساسية . ولكى يبرر ديكارت هذه النتيجة العجيبة التى قاده إليها المنطق عمد إلى حجتين : (١) الحيوانات لا تتكلم . ونرى بأمثلة أشد الناس غباء أن قدراً قليلاً من الذكاء يكفيهم للكلام . ولما كانت الحيوانات عاجزة عن اللغة فليس لها إذن ذكاء البتة . وليست أعضاء الكلام هى التى تنقصهم ، فإن الببغاء والعقعق (غراب البين) قادرة على أخراج أصوات . (٢) الحيوانات عاجزة عن تنويع أفعالها . فإذا كانت الحيوانات تعمل أشياء كثيرة بقدر من الاتقان يعدل إن لم يكن يزيد على أتقاننا لأعمالنا فواضح أنها لا تعملها بالذكاء لأنها عاجزة عن تنويع طريقتها فى العمل. إن خاصية الذكاء بالعكس ، لأن العقل أداة كلية ، هى أن يتكيف مع الظروف ، وأن يستفيد من الحوادث وأن يغير من الطرق التى

يستخدمها تبعاً لما ينشده من غايات . وما من شك تبعاً لديكارت فى أن الآلات المعقدة والمضبوطة بأحكام تستطيع أن تؤدى جميع الأفعال التى نرى الحيوان يؤديها . «أن الطبيعة هى التى تعمل فى الحيوانات تبعاً لاستعداد أعضائها : لذلك نرى أن الساعة وهى التى أنما ركبت من عجلات ولوالب تستطيع أن تحسب الوقت وأن تقيسه خيراً مما نستطيع بكل ما أوتينا من حصافة» .

بعد أن بسط ديكارت كل ما يفسر بالامتداد والحركات فقط ، عمد إلى النظر فى النفس الناطقة . فدخل هنا فى عالم جديد : هنالك انقطاع وفجوة لا يمكن أجتيازها فى سلسلة الكائنات . فالنفس «لايمكن البتة أن تستخلص من قوة المادة ، كما كانت الحال فى الأشياء الأخرى التى تكلمت عنها ، بل لابد صراحة أن تكون مخلوقة» من الله . أن من أخطر الأخطاء أن نعتقد أن نفوس الحيوانات من طبيعة نفوسنا ، وتبعاً لذلك فليس لنا أن نخشى ولا أن نؤمل فى شئ بعد هذه الحياة ، شأننا كشأن الذباب والنمل . فإذا علمنا بالعكس مبلغ الاختلاف بين هذه وتلك فهمنا أن النفس الإنسانية لما كانت من طبيعة مستقلة تمام الاستقلال عن البدن ، فهى ليست عرضة لأن تموت معه : والمرء يميل طبعاً إلى أن يحكم من هذا بأنها باقية لا تموت .

## (٦)

فى هذا القسم من «المقال» عرض لنا ديكارت على التوالى الأسباب

التى كانت لديه أولاً لنشر «رسالة الضوء» التى أعطى موجزاً منها ، ثم الأسباب التى منعته من نشرها ، وأخيراً الدواعى التى لديه لا يقاف القارئ على خلاصتها وأجزاء منها .

أراد أن ينشر كتابه أولاً لأن الحقائق التى أكتشفها من الممكن أن تقود إلى تطبيقات نافعة ، ولأن أخفاءها أثم كبير فى حق القانون الذى يضطرنا إلى أن نحصل بقدر ما فى وسعنا الخير العام للناس جميعاً . يجد القارئ هنا صفحات جميلة جداً ، تستشف فيها عبقرية ديكارت المتنبئة كيف أن نمو العلوم يعيننا على أن نستعمل قوى الطبيعة فى جميع الاستعمالات التى أعدت لها ويجعلنا «سادة على الطبيعة مالكين لها» بل أنه يذهب إلى الاعتقاد بأن تقدم الطب يستطيع أن «يعفينا من أمراض لا تحصى ، أمراض البدن وأمراض النفس ، بل ربما من ضعف الشيخوخة أيضاً» .

ويلاحظ بالإضافة إلى هذا أنه لكى يحقق الغرض الذى بينه ، يلزم أجراء عدد من التجارب كبير ؛ ولكن لا تكفى لذلك حياته ولا دخله المالى ، ولو بلغ أكثر مما عنده ألف مرة . فيجب إذن أن يتمم غيره ما قد بدأه أو أن يعينوه فى البحث عما يبقى عليه أن يعمله . ومن أجل الدعوة إلى هذا ، بل من أجل أن يلزم إلزاماً أخلاقياً جميع من لديهم القدرة عليه ، أراد أن يعرف الناس بمضمون رسالته .

ولكن عدل عن رأيه ، لا لأنه عدل عن أعلان الحقائق التى

أكتشفها، ولكنه رأى تأجيل النشر ، لأسباب منها : تجنب المعارضات والمجادلات التى يغلب على الظن أن يكون كتابه عرضة لها ؛ ثم الرغبة فى أن يدخر لنفسه فترة من الوقت أطول لإتمام البحوث التى كان قد بدأها. وقد علمته التجربة قلة الجدوى من معارضات المعارضين ، كما اقتنع بأنه يكاد يكون من المستحيل أن يعهد المرء إلى الآخرين بإتمام ما بدأه هو . فالتلاميذ غالباً ما يسيئون تفسير فكر الأستاذ وكثيراً ما يلبسونه ثوباً غير ثوبه إن لم يمسخوه مسخاً . وفى كلام ديكارت بهذا الصدد ضرب من الأرهاص بما سيقع فى الأجيال المقبلة . ولذلك نراه يتجه إلى الخلف بالرجاء أن «لا يصدقوا أبداً أن ما يقال لهم قد صدر عنه إن لم يعلنه هو نفسه» . ويلاحظ أخيراً أن التجارب المطلوبة والتى يمكن أن يقوم بها الآخرون قد بلغت من التعقيد جداً يجعل من الصعوبة بمكان أن يقع الأتفاق عليها بين الباحثين ويقلل احتمال تنسيق جهدهم من أجل الغاية الواحدة .

غير أن ديكارت رأى مع ذلك أن ينشر «المقال فى المنهج» مصحوباً ببعض بحوث خاصة عن «البصريات» و «الآثار العلوية» . وهو يفسر لنا الأسباب التى حملته على اتخاذ هذا القرار ، فيقول : أن أشخاصاً كثيرين قد عرفوا أن فى نيته أن ينشر ما وصل إليه من اكتشافات . فلو أنه أمسك عن النشر فربما يتأولون أسباب اقتناعه ويتصورونها على غير حقيقتها ؛ ثم أنه يشهد كل يوم تزايد التعويق

لخطته فى تعليم نفسه بسبب حاجته إلى تجارب عديدة لا تحصى لا يستطيع أن يقوم بها ، دون معونة من الغير . لهذا كله رأى واجباً عليه أن ينبه الخاصة من الباحثين إلى ما يمكنهم أن يعاونوه به .

وفى ختام «المقام» يبين ديكارت السبب فى تأليف كتابه باللغة الفرنسية دون اللاتينية ، خلافاً للعرف المألوف عند العلماء ، وهو «أنه يأمل أن أولئك الذين لا يستعملون إلا عقولهم الفطرية فى خلوصها ونقائها سيحكمون على آرائه خيراً من أولئك الذين لا يؤمنون إلا بكتب القدماء . أما الذين يضيفون إلى الدرس سلامة الذوق - وهو يرجو أن يكونوا هم وحدهم قضاته - فإنه واثق أنهم لن يكونوا منحازين إلى اللاتينية انحيازاً يجعلهم يرفضون سماع حججه لمجرد أنه يشرحها بلغة العامة .

## (ب) تاريخية «المقال فى المنهج»[1] :

مال بعض المحدثين من كتاب السيرة الديكارتية إلى التشكيك فى تاريخية القصة التى راها ديكارت عن حياته فى كتاب «المقال فى المنهج» :

ففى «مجلة العالمين» كتب «بول جانيه» (بتاريخ ١٥ من يناير ١٨٦٨) مقالاً عجيباً عن ديكارت بين فيه أن من سمات أخلاق الفيلسوف الخيال القصصى ، والولع بالسفر ، والحاجة إلى الحركة ، وقرر أن الفيلسوف

---

(١) أنظر جوهييه : «محاولات عن ديكارت» باريس ١٩٤٩ .

فيما يبدو له قد رتب حياته العقلية ترتيباً متأخراً حين هم بكتابة «المقال»: «فهـو حين وصل إلى وعى تام بمشـروعه الفلسـفى أعتـقد ، تحت تأثـير الفكرة التى كانت مسيطرة عليه حـينذاك ، أن جميع خواطره كان لابد أن تدخل فى هذا الإطار ؛ وجعل من رحلاته نفسها إعداداً لمنهجه ، وأضفى نسقاً على حياته كلها منذ خروجه من المدرسة إلى البناء النهائى لمذهبه» .

وهذا الرأى المعتدل نوعاً ما يعبر عن الحذر المطلوب الذى يمارسه كل مؤرخ أمام قصة كقصة «المقال» .

ولكن «الفرد أسبيناس» قد عاود النظر فى سيرة ديكارت ، ورأى فى كتاب «المقال» وثيقة تاريخية تثير بعض الشبهات ، من حيث الشكل ومن حيث المضمون على السواء ، وانتهـى إلى رفضها كلها دون أن يفرق بين ما يتـصل بهذا وما يتـصل بذاك ، وقال : «إن ديكارت هو المؤلف الأول لأسطورة الرحلـة العلمـيـة فى ربوع أوربا ؛ فكان لابد وفـقـاً للمـعطاة الأساسيـة للمقال فى المنهج أن تقام حـياته طبقاً لخطة ، وأن تجـد جميع خطواتها مبـررها فى مبدأ وحيد ، هو إعداد الفلسـفة الديكارتية ، الخ» - هذا يتصل بنقد الشكل . والنقد ينصب على مـضمون القصة حين يكتب «اسبيناس» : «أن من العسير أن نصدق أن ديكارت فى الخامسة عشرة من عمـره كان ناقـداً للتعليم فى مـدرسة لافليش ، مع أن هذا التـعليم كان عندى موضع اهتمام يبلغ حد الغرام . ثم أن الحكم الذى أطلقه فى المقال فى المنهج على المدرسين حكم قـد قدم تاريخه : فـالإنسان لا يتـصور أن

شاباً حديث السن يسيطر على مجموعة العلوم والفنون المقررة في دراسته ، ويستعرضها ناظراً إليها نظرة التعالى ، آخذاً على بعضها صعوبتها على البرهنة وأن تكن نافعة ، وعلى بعضها الآخر بأنها لا جدوى منها وإن يكن من الممكن البرهنة عليها علمياً» .

وقد ذهب «كانتكور» فى بعض مقالات له (المجلة الفلسفية ، نوفمبر ١٩٢٣) إلى أن «قصة المقال في المنهج تخدعنا عن غير قصد عن الترتيب لتاريخى لمشاغل هذا الفيلسوف ، كما تخدعنا عن نشأة وتسلسل العناصر لمختلفة التى تألفت منها فلسفته . . . وهذا التاريخ لأفكار ديكارت مزيف من طرف إلى آخر . . .» .

إن حذر «جانيه» وارتياب «اسبيناس» قد بلغا من الشدة على يدى «كانتكور» بحيث أصبحا تأويلاً عاماً ومذهبياً ، يدافع عن قضايا كثيرة مختلطة غير متميزة : أولها : أن «إطار» القصة ترتيب عمل مؤخراً . وثانيها : أن «مضمونها» زائف وثالثها : أن حياة ديكارت وعقليته يجب أن يعاد النظر فيها ؛ ونظرة التاريخ تكاد تكون مضادة لنظرة «المقال» : فمما يلفت النظر فى تاريخ حياة ديكارت وتاريخ فكرة بروز جانب المصادفات والمفاجآت وتقلب المزاج والذكاء . ويمضى «كانتكور» محاولاً أن يدلل على الزيف التاريخى لكتاب «المقال فى المنهج» .

ومتى تم له أن يجعل من رأيه دعوى وقضية عامة ، فقد كان من الميسور له طبعاً أن يذهب إلى أن حياة ديكارت مؤلفة من أحداث لا يمكن التنبؤ بها . . .

وهذا فى الحق أمر قد سبق إليه «كانتكور» وليس فيه جديد . وقد فاته هنا أن يرى أنه إذا كانت الحياة عدم إمكان التنبؤ فالفكرة ذاكرة . وديكارت إذا كان قد أعاد بناء حياته وهو يكتب «المقال» ، فقد صنع ذلك مستعيناً بالذكريات . وإذا لم يكن ديكارت ديكارتياً عند مغادرته «لافليش» ، فإن ديكارت فى سنة ١٦٣٧ ليس مع ذلك إنساناً آخر غير تلميذ «لافليش» جندى «بريدا» . ويترتب على ذلك أمور :

(١) أن ديكارت سنة ظهور «المقال فى المنهج» فيلسوف مالك لنسق فلسفى، ويرى بوضوح ماضيه فى ضوء هذا النسق ، ومن العسير عليه أن يفكر فى ماضيه دون هذا الحاضر الذى يبدو نتيجة له . و«إطار» القصة نظام أدخله ديكارت مؤخراً ، لا خطة عمل تصورها يافعا .

(٢) إن «إطارا» يوضع مؤخراً ليس بالضرورة زائفاً وغياب القصد والتدبير لا يستبعد من الذهن كل رسم أو خطة . والمهم هو أن لا نأخذ الخطة على أنها قصد . وشباب ديكارت ليس تحقيقاً لنظام مقدر من قبل . ولكن الحياة هى دائماً خلق «لنظام بلا برنامج محدد . وإذا كانت الخمس والثلاثون التى أدت إلى ظهور كتاب «المقال» أقل أتساقاً من التخطيط المطابق الذى نجده فيه ، فليس بديهياً مع ذلك أن يكن هذا التخطيط اللاحق محض اختلاق .

(٣) وإذن فالإطار والمضـمون فى «المقال» لا يـنفصلان ، من حـيث هما حاضر ومـاض ، واختراع وذاكرة فى فكرنا . ومن التبـسيط المسرف أن نفرق بين «إطار» صناعـى يصلح لترتيب «مضـمون» حقـيقى ، يكون أشد أسـرافاً أن نرفض كل شئ جملة - أن تاريخيـة «المقال» شئ يمس ذاكرة ديـكارت . وكل ذكرى هى إعادة بنـاء لماض غائب فى وعى حاضـر ، ولكنها ليست ذكرى إلا بحـضور هذا الماضى . و«إطار» «المقال فى المنهج» و «مضـمونه» يمثلان وحدة فيهـا يستدعى الحاضر الماضى ، وفيها أيضاً يفرض الماضى نفسه على الحاضر .

(٤) أين نجد فى نص «المقـال» ذكريات ديكارت الحقـيقية ؟ وفـيم كانت حياته مـلائمة لهذا النمط أكثر من أى نمـط آخر ؟ تلك هى الأسئلة الموضوعة أمام المؤرخ . ومن أجل هذا كانت تاريخية «المقال» مشكلة تمحيص قبل أى شئ آخر .

وهذا ماقد أوضحه «اتين جيلسون» فى «تعليقه على المقال فى المنهج». وهذه المراجعة تؤيد أقوال ديكارت إلى حد كبير. أن النص الذى أورده فيه تدقيق يسـترعى النظر : والخطوط الكبـرى التى يرسمـها فى ماضـيه هى بالجملة الخطوط التـى يستطيع التاريخ أن يجـيزها ؛ واللحظات الحاسـمة التى يذكرها هى اللحظات التى تطابق فترات ذات أهمية استثنائية.

### (ج) دخائل «المقال فى المنهج» :

إن «المقـال فى المنهج» كـتـاب فـيلسـوف راض كل الرضى ، راض بفلسفته وراض على الخصوص بالمنهج الذى جـاءت هذه الفلسفة تحقيقاً له متصـلاً لا ينقطع : «لقد شعـرت ببالغ الرضى منذ بدأت استعـمال هذا المنهج ، إلى حد أننى ظننت أن المرء لا يستطيع أن يحظى بأحلى من هذا الرضى ولا أبرأ منه فـى هذه الحـياة . ويكـشفـى كل يوم بواسطتـه عن حقاذق يبدو لى أنها ذات شأن ومجـهولة من الآخرين ، كان ما نلته من الرضى ملء دفسى إلى حد جعلنى لا أحفل بما عداه» .

ورضى ديكارت هو رضى إنسان جـاوز ما كان فى حسـبانه ، إن لم يجاوز مجـرى أحلامه : لن أخشى أن أقول أنى أحـسب أنه قد كان لى حظ كبير إذ التقيت منذ شبابى بمسـالك معينة ساقتنى إلى اعتبارات وإلى مبادئ كونت منها منهجاً يتيسر لى به ، فيما يبدو لى ، أن أزيد بالتدريج معـرفتى ، وأن أرفعهـا شيئـاً فشيـئاً إلى أعلى درجة يسـتطيع أن يسمح ببلوغها ضـعف ذهنى وقصر حياتى . فقـد سبق لى أن حصلت منه على قـدر من الثمـرات . . . يجـعلنى أشعـر ببالـغ الرضى من التقـدم الذى أحسبنى قـد بلغته من قبل فى البـحث عن الحقيقة ، ويمهـد لى أن أعقد آمالاً عن المستقبل كباراً ، حتى أننى أصبحت أرى أنه إذا كان من مشاغل الناس من حيث هم ناس مـاهو خير وذو شأن ، لملت إلى الاعـتقاد بأنه هو ذلك العمل الذى اخترته» .

«ولكن أكثر ما أرضاني من ذلك المنهج هو أني قد استوثقت من أنني أستعمل في كل شيء عقلي ، إن لم يكن على وجه الكمال ، فعلى الأقل على أفضل ما في استطاعتي من وجوه . .» ، «ومن حيث أنه . . . يكفي أن تحكم حكماً حسناً لكي تفعل فعلاً حسناً ، وأن تحكم أحسن ما تستطيع حكماً لكي تفعل أيضاً أحسن ما تستطيع فعلاً ، . . . وإذا استوثقت من أن ذلك كائن ، فلن تخلو من أن تكون راضياً» .

إن نغمة ديكارت في كتاب «المقال في المنهج» نغمة رجل مستبشر النفس منشرح الصدر ، رجل ناجح أزدهرت شئونه وأقبلت الدنيا عليه ، منمياً لأعماله موسعاً لمشروعاته . ويبدو عند ديكارت أن الأنشراح ليس هو المرافق الطبيعي للنجاح فحسب ، بل إن الأنشراح ليصير شرطاً للنجاح في أكثر الأحيان ، كما ذكر ديكارت للأميرة «اليزابث» : «لقد جربت أن الأشياء التي قمت بها وأنا منشرح الصدر وبغير أي شعور بنفور داخلي قد كان النجاح فيها حليفي» .

ولكن المشروعات التي تشغل ديكارت على وجه خاص هي مشروعات الذهن والفكر . وديكارت راض مبتهج بما هو كائن قبل أن يبتهج بما سيكون ، فابتهاجه مصاحب لنجاح فعلي وليس هو التكهن بنجاح محتمل : وهذا النجاح الفعلي هو نجاح منهجه العقلي . وديكارت راض مبتهج ، لأنه نجح ، ولكن النجاح عنده هو تحصيل اليقين . وإذا في قمة فلسفته معارف نافعة للحياة ، فلأنها تطبيق صحيح لمعارف يقينية

غـير ظنيـة . وإذا كـانت «التقنيـة» العلمـية تضـع العالم تحت تصـرف الإنسان، فـهذا السلطان الزمانى هو المرحلة الأخيـرة لغزو روحى . وإذن فالنجـاح العظيم ، النجاح الذى يعلو على كل نجح آخر ، هور اكـتشاف هذه «التقنيـة» النظرية الخالصة التى تضع الذهن الإنسـانى مالكاً للحقـيقة فاتحاً آفاقها المترامية .

الحقـيقـة تنتج اليقين . والـيقين «انبـساط» ورضا ، بل هـو أصفى وأخلص رضا يستطيع الإنسان أن يستـشعره فى هذه الدنيا : وإذن فمؤلف «المقـال فى المنهج» يسـتطيع أن يناجى نفـسـه ويقول أنه فـرحـان بما هو فيلسوف وبما هو إنسان ، ومبتهج بالمنهج الذى يحصل له مثل هذا اليقين.

واليقين رضا وأنبسـاط . وهذا أمر واقع ؛ ولكن هذا الأمر الواقع ذو دلالة بعيدة المدى : وإذا كان الإنسان كائناً ناطقاً ، فاليقين هو حال إنسان يكون إنساناً على الحقـيقة ؛ والرضى الناشئ من اليقين يعـبر عن عروج الإنسان إلى الإنسانية الحقة . والإنسـان ليس مجعولاً للأقامة على الشك والأرتياب ، ولا هو مـجعول للحيـاة فى قلق و «حصر» . أن نفسـاً قلقة لهى نفس شقية وإن نفساً ترعى قلقـها وتتعهده لهى نفس مريضة ، وإن نفساً تؤمل فى قلقها لهى نفس تخون قدرها .

وإذا كان «بسكال» معاصراً لديكـارت ، فتلك أحدى المصادفات التى تجعل التاريخ مـسرحاً للمفـارقات . إن أموراً كثيـرة لم يستطع بسكال أن يغفرها لديكارت : غـرامة بالعلم ، والهه بغير إنسانيـة . . . ولكن مهما

يكن من محاولات للصلح بين الرجلين ، فالواقع أن الخلاف بينهما أعمق من أن يعبر عن بوضوح . وإن احتجاج «بسكال» على ديكارت واقعة تاريخية معينة . ولكن تجدد هذا الاحتجاج من عصر إلى عصر هو خط من الوقائع يرفع التعارض بين رجلين إلى تعارض بين ذهنين أو عقليتين .

وفرق بين الرضى الذى نقرؤه فى «المقال» صراحة أو نستشفه مما بين السطور كتابات ديكارت ، وبين الهدوء المرح الذى نجده عند الرجل المستمتع بطيبات الحياة ، والذى وجد لأنه لم يبحث قط فى الديكارتية مهمة الذهن أن يبحث ؛ والمرء لا يبحث وهو يتأوه ، بل بمنهج وهو فرح جذلان .

رضا ديكارت أنبساط عميق ككل أنبساط يعنى كمال الوجود ، ولكنة لا يمكن أن يستبشعر إلا فى عالم لم تعد الطفولة فيه هى الفردوس المفقود . إن براءة أخرى غير براءة الحواس وهى براءة الذهن - تأخذ بمجامع القلب : أن فرحة الهامس المطمئن فى غير صخب ، يعلن عن مولد الإنسان بالمنهج .

## ٤ - نصوص مختارة من «المقال فى المنهج» :

### (أ) *العقل أحسن الأشياء قسمة بين الناس* :

«العقل هو أحسن الأشياء توزعاً بين الناس بالتساوى ، إذ يعتقد كل

فرد أنه أوتى منه الكفاية ، حتى الذين لا يسهل عليهم أن يقنعوا بحظهم من شئ غيره ، ليس من عادتهم الرغبة فى الزيادة على ما لديهم منه . وليس براجح أن يحظى الجميع فى ذلك ، بل الراجح أن يشهد هذا بأن قوة الإصابة فى الحكم وتمييز الحق من الباطل وهى فى الحقيقة التى تسمى بالعقل أو النطق ، تتساوى بين كل الناس بالفطرة . وكذلك يشهد بأن اختلاف آرائنا لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر ، وأنما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا فى طرق مختلفة ، ولا ينظر كل منا فى نفس ما ينظر فيه الآخر .

**(ب) نظرة إلى ثقافة العصر :**

«لقد عذبت بالآداب منذ طفولتى» وأقنعت أنه مستطاع بواسطتها تحصيل علم يقينى بكل ماهو نفع فى الحياة ، فاشتدت رغبتى فى تعلمها ولكنى ما كدت أفرغ من تلك المرحلة الدراسية حيث جرى العرق أن يقبل الدارس فى نهايتها فى زمرة العلماء حتى غيرت رأيى تغيراً تاماً : فقد وجدت نفسى يساورنى من الشكوك والضلالات ما بدا لى معه أننى لم أكتسب من جهودى فى التعليم إلا تَبيّنى شيئاً فشيئاً مبلغ جهالتى .

على أنى كنت فى مدرسة من أشهر مدارس أوروبا كنت أظن أنه يجب أن يكون فيها علماء ، إذا كان فى أى ركن من الأرض علماء . ولقد تعلمت فيها كل ما كان يتعلم غيرى ، بل أننى لما لم أقنع بما كانوا يعلمونتا من العلوم ، تصفحت كل ما وصل إلى من كُتُب فى العلوم

التى يعتبرونها أعجب العلوم وأندرها ... ثم أنه كان يخيل إلى أن عصرنا فى أزدهاره وفى خصبه بالعقول القوية ، لا يقل عن أى عصر من العصور السالفة .

وعلى كل حال فأنى ما غمطت حق ما يشتغلون به في المدارس ، وأنى لأعلم أن اللغات التى تعلم فيها ضرورية لفهم الكتب القديمة ، وأن طلاوة القصص توقظ النفس ، وأن حوادث التاريخ المذكورة تسمو بها ، وإذا قرنت بتمحيص أعانت على تكوين ملكة الحكم على الأشياء . وأن مطالعة الكتب الجيدة هى كمحاضرة مؤلفيها الذين هم خير أهل القرون الماضية ، بل هى محاضرة معتنى بها ، لا يكشفون لنا فيها إلا عن صفوة أفكارهم ؛ وأن للبلاغة قوة وجمالاً لا يضرعان ؛ وأن للشعر رقة وحلاوة رائعتين جداً ، وأن فى الرياضيات اختراعات دقيقة جداً وتفيد كثيراً فى أرضاء الأذهان المتطلعة وفى تيسير سبل الفنون جميعاً ، وتوفير جهود الناس . وأن كتب الأخلاق تشتمل على كثير من التعاليم وعلى مواعظ كثيرة تحث على الفضيلة وهى مفيدة جداً ؛ وأن علم اللاهوت يهدى إلى طريق الجنة ؛ وأن الفلسفة تعطينا وسيلة للتكلم فى كل شئ بما هو أدنى إلى الحق وللظفر بأعجاب من هم أقل منا علماً ، وأن التشريع والطب والعلوم الأخرى تجلب الجاه والمال لمن يتعلمونها ، وأخيراً أرى أن من الخير أن نخبرها جميعاً حتى أكثرها خرافة وبطلاناً ، لنعرف قيمتها الصحيحة ونحذر الخديعة فيها» .

### (ج) الدليل على وجود الله مستخلصاً من فكرة الكامل :

«لما فكرت فى شكوكى ، وأن مؤدى هذا أن ذاتى لم تكن تامة الكمال ؛ لأنى تبينت أن المعرفة كمال أكبر من الشك ، رأيت أن أبحث أنى تعلمت أن أفكر فى شئ أكمل منى ؛ وعرفت يقينا أن ذلك يجب أن يكون ذا طبيعة هى فى الواقع أكمل . أما ما كان لدى من تفكيرات فى أشياء كثيرة أخرى خارجة عنى ، مثل السماء والأرض والضوء والحرارة الخ ، فلم أتعب كثيراً فى معرفة من أين جاءت ، لأنى إذ لم ألاحظ فيها شيئاً يجعلها فى نظرى أسمى مرتبة منى ، استطعت أن أعتقد أنها إذا كانت حقيقية فإنها من توابع طبيعتى ، ومن جهة أن طبيعتى لها شئ من الكمال ، وأن هذه الأشياء إن لم تكن كذلك ، فأننى أكون استمددتها من العدم ، أى أنها كانت حاصلة عندى من جهة ما فىَّ من نقص .

ولكن الأمر لا يمكن أن يكون على هذا النحو فيما يتعلق بفكرة وجود أكمل من وجودى . لأن استمداد تلك الفكرة من العدم أمر جلى الاستحالة ، إذ أن التناقض الواقع فى أن الأكمل يكون لاحقاً وتابعاً لما هو أقل كمالاً ليس أقل من التناقض الواقع فى أنه يحدث شئ ما من العدم ، إذن فأنا لا أقدر أيضاً على أن أستمد هذه الفكرة من نفسى . وعلى ذلك بقى أن تكون هذه الفكرة قد ألقيت إلى من طبيعة هى فى الحقيقة أكثر منى كمالاً ، بل ولها من نفسها كل الكمالات التى أستطيع

أن تصورها ، وبعبارة أخرى هى الله» .

### (د) أخلاق مؤقتة :

«لكيلا أظل متردداً فى أعمالي حينما يضطرنى العقل إلى ذلك فى أحكامى ، ولكيلا أحرم نفسى من أسعد حياة أقدر عليها ، وضعت لنفسى قواعد للأخلاق مؤقتة لا تشتمل إلا على ثلاث حكم أو أربع .

«الأولى : أن أطيع قوانين بلادها وعاداتها ، مع ثبات فى محافظتى على الديانة التى أنعم الله على بأن نشأت فيها منذ طفولتى ، وأن أحكم نفسى ، فى كل أمر آخر تبعاً لأكثر الآراء اعتدالاً وأبعدها عن الإفراط ، والتى أجمع على الرضى بها فى العمل أعقل الذين سأعيش معهم.

«والثانية : أن أكون أكثر ما أستطيع جزماً وتصميماً فى أعمالى ، وألا يكون استمساكى بأشد الآراء عرضة للشك ؛ إذا ما صحت عزيمتى عليها ، أقل ثباتاً مما لو كان من أشد الآراء وضوحاً . . .

«والثالثة : أن أجتهد دائماً فى أن أغالب نفسى ، لا أن أغالب الحظوظ ، وأن أغير رغباتى لا أن أغير نظام العالم ، وبالجملة أن أتعود الاعتقاد بأننا لا نقدر قدرة تامة إلا على أفكارنا ، بحيث أننا إذا فعلنا خير ما نقدر عليه ، فيما يتعلق بالأمور الخارجة عنا فإن كل ما ينقصنا بعد ذلك من أسباب النجاح هو بالنسبة إلينا مستحيل على الإطلاق

## (هـ) بين الاعتزاز والتواضع :

«وأما المنفعة التى سينالهـا الآخرون من نشر أفكارى فأنها لن تكون كبيـرة جداً ما دمت لم أتقدم بها تقـدماً كبيراً يجـعلها غير محـتاجة إلى أضافة الشئ الكثـير إليها قبل تـطبيقها . وأحـسب أنى أستطيع أن أقول دون غرور أنه إذا كـان هنالك شخص يسـتطيع ذلك ، فأنى أكـون قطعاً أولى بذلك من أى واحد غـيرى ، لا لأنه لا يمكن أن يوجـد فى العالم أذهان كثيرة أفـضل من ذهنى على نحو لا يجارى ، ولكن لأنه ليس فى مقدور المرء أن يتمثل شيئـاً وأن يجعله ملكاً له ، إذا تعلمه من غيره ، ما يكون فى مقدوره إذا استكشفه بنفسه : وذلك صحيح جداً فى هذا الأمر : وآية ذلك أنى كثيـر ما شرحت بعض آرائى لأشخاص ذوى قـرائح جيدة جداً ، وكان يبـدو عليهم وأنا أتحدث إليهم أنهم يفهمـونها فهماً متميزاً جداً، ومع هذا فإنهم حينما كانوا يعـيدونها كنت ألاحظ أنهم قد غيروها بصفة تكاد تكون دائمة تغييراً يجعلنى غير قادر على أن أتبين أنها آرائى .

ويطيب لى بهذا الصدد أن أرجو أحفادنا ألا يصـدقوا ما سيقال لهم أنه صادر عنى ، إذا لم أكن قد أذعته أنا بنفسى» .

## ٥ - أثر المقال فى المنهج :

أشرنا فى بداية هذا الفـصل إلى أثر ديكارت على العلم الحديث كله المتشـبع بالرياضة على نحـو ما أراده الفـيلسوف أن يكون . وقـد أظهرنا

مفكرى القرن الثامن عشر ، فى تطبيقهم المنهج الديكارتى على الأفكار السياسية والدينية ، أنهم ربما كانوا ديكارتيين أكثر من ديكارت نفسه ، حتى لقد أستطاع بعضهم أن يقول أن «الثورة الفرنسية» قد صدرت عن «المقال في المنهج» . وعلى أى حال فكل إنسان يستعمل عقله - حراً - للبحث عن الحقيقة يستطيع دائماً أن يعد نفسه تلميذاً كهذا الرائد العبقرى من رواد الحرية .

## مقدمة

إذا بدا هذا المقال طويلاً جداً بحيث لا يقرأ كله دفعة واحدة ، فمن المستطاع تقسيمه إلى ستة أقسام : فى **القسم الأول** أنظار فى العلوم مختلفة . وفى **الثانى** أصول القواعد للمنهج الذى بحث عنه المؤلف . وفى **الثالث** بعض قواعد الأخلاق التى استنبطها من ذلك المنهج . وفى **الرابع** الأدلة التى يثبت بها وجود الله والنفس الإنسانية وهى أركان مذهبه فيما بعد الطبيعة . وفى **الخامس** ترتيب مسائل الطبيعيات التى بحث فيها ، لاسيما تفسير حركة القلب وبعض معضلات أخرى تختص بالطب ثم التفرقة بين نفسنا ونفس الحيوان . وفى **القسم الأخير** بيان الأمور التى يعتقد المؤلف بالحاجة إليها للسير بدراسة الطبيعة إلى أبعد مما انتهت إليه ، وبيان الأسباب التى بعثته إلى الكتابة .

# القسم الأول

العقل[1] هو أحسن الأشياء توزعاً بين الناس (بالتساوى) إذ يعتقد كل فرد أنه أوتى منه الكفاية ، حتى الذين لا يسهل عليهم أن يقنعوا بحظهم من شئ غيره ، ليس من عادتهم الرغبة فى[1] الزيادة لما لديهم منه . وليس براجح أن يخطئ الجميع فى ذلك ، بل الراجح أن يشهد هذا بأن قوة الأصابة فى الحكم ، وتمييز الحق من الباطل ، وهى فى

---

(١) التعبير الفرنسوى الذى استعمله ديكارت هو Bon sens وقصد به القوة اللازمة لاجادة الحكم أى لتمييز الحق من الباطل فى النظرى والعملى . وللعقل عملان فكريان أساسيان وهما البداهة Intuition والقياس Déduction (راجع القاعدة الثالثة من القواعد لقيادة العقل (١) وهانكان : منهج ديكارت (٢) فى مجلة ما بعد الطبيعة وعلم الأخلاق نوفمبر سنة ١٩٠٦ ص ٧٦٠ وانظر فى مقدمتنا شرح معنى البداهة والقياس عند ديكارت) . ومما يجدر بالذكر أنه وجد بين أوراق ديكارت بعد وفاته كتيب عنوانه Studium bonae mentis أى درس العقل وقد نقل هذا العنوان إلى الفرنسوية مترجم حياته بابيه BAILLET كما يأتى L'étude du bon sens ou de l'art de bien comprendre أى درس العقل أو فن أجادة الفهم ، ويرجح أن تلك الكتابة كانت مشروع المقال عن المنهج (راجع هملان مذهب ديكارت (٣) ص ٣٦) .

الحقيقة التى تسمى بالعقل أو النطق ، تتساوى بين كل الناس بالفطرة ، وكذلك يشهد بأن اختلاف آرائنا لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر ، وإنما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا فى طرق مختلفة ، ولا ينظر كل منا فى نفس ما ينظر فيه الآخر لأنه لا يكفى أن يكون للمرء عقل ، بل المهم هو أن يحسن استخدامه . وأن أكبر النفوس لمستعدة لأكبر الرذائل مثل استعدادها لأكبر الفضائل ، والذين لا يسيرون إلا جد مبطئين يستطيعون حين يلزمون الطريق المستقيم أن يسبقوا كثيراً من يعدون ، ويبتعدون عنه .

أما أنا فلم أدع قط أن نفسى أكمل من نفوس الغير ، بل كثيراً ما تمنيت أن يكون لى من سرعة الفكر ، أو من وضوح الخيال وتميزه ، أو من سعة الذاكرة وحضورها ، مثل ما لبعض الناس . ولست أعرف فضائل غير هذه تعين على تكميل النفس : لأنى أميل إلى الاعتقاد بأن النطق ، أو العقل ، ما دام هو الشئ الوحيد الذى يجعلنا أناساً ويميزنا عن سائر الحيوان، هو بأكمله فى كل إنسان ، وأنى أميل فى ذلك إلى اتباع الرأى الشائع بين الفلاسفة الذين يقولون أنه لا زيادة ولا نقصان إلا فى الأعراض[1] ، ودون الصور الجسمية[2] أو

(١) جمع عرض وهو ما يتعلق بذات ما دون أن يلزمها فى تعريف ماهيتها .

(٢) جمع صورة ويقصد بها ديكارت «مبدأ باتحاده مع المادة يتكون جسم طبيعى ويحل فى نوع معين» (جلسون فى تعليقه على المقال عن المنهج (٤) ص ٨٩) .

طبائع[1] الأفراد[2] من نوع واحد[3] .

ولكنى لا أخشى أن أقول ما أعتقده من أننى كنت كثير التوفيق ، إذ ألفيت نفسى منذ الحداثة[4] فى بعض الطرق التى قادتنى إلى أنظار وحكم ، ألفت منها منهجاً ، به يبدو لى أن عندى وسيلة لزيادة معرفتى بالتدريج ، وأن أسمو بها قليلاً إلى أعلى درجة[5] يسمح ببلوغها ما فى

(١) جمع طبيعة ، وهى مبدأ أول وعلة لكل حركة وسكون ذاتيين للذى تكون فيه تلك الطبيعة (أنظر تعريف أرسطو للطبيعة المقتبس فى تعليق (٤) جلسون ص ٩٠ وتعريف ابن سينا لها فى رسالة الحدود وهى فى مجموعة تسع رسائل فى الحكمة . وبتعريف أعم «هى القوة التى فى الشئ فتجرى بها كيفيات ذلك الشئ على ماهى عليه ، وإن أوجزت قلت هى قوة فى الشئ يوجد بها على ماهو عليه» ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ج ١ ص ١٥ طبعة القاهرة سنة ١٣١٧ .

(٢) جمع فرد وهو مالا تنطبق كل صفاته مجتمعة على غيره .

(٣) يقصد ديكارت بالنوع هنا الكلى المقول على كثيرين مختلفين فى العدد دون الحقيقة فى جواب ماهو ، وذلك هو النوع الحقيقى .

(٤) يقول بابيه فى كتابه عن حياة ديكارت : انه صنع - وهو لا يزال فى كلية لافليش - منهجاً غريباً للمناقشة الفلسفية ، وهذا المنهج - على حسب بسط المترجم له - هو منهج رياضى صرف ينحصر فى معالجة المسائل كما يفعل أصحاب الهندسة وذلك بتقديم البديهيات ثم الانتقال إلى تعريفات ثم إيراد البراهين . (راجع نص بابيه المقتبس فى كتاب هملان مذهب ديكارت (٣) ص ٣٤) وهذه بعض محاولات ديكارت ، قبل شتاء سنة ١٦١٩ ، للبحث عن منهج للاختراع (انظر المقدمة) .

(٥) كان العنوان الذى يريد ديكارت وضعه على المقال هو مشروع علم شامل يستطيع =

عقلي من ضعف ، وما في مدى حياتي من قصر . ذلك لأني جنيت من ثمرات ذلك المنهج[1] ما جعلني أحاول دائماً في الأحكام التي أكونها عن نفسي أن أميل إلى جهة الحذر ، أكثر من ميلي إلى جهة الغرور ، ولما نظرت بعين الفيلسوف إلى فعال الناس ومقاصدهم لم يكد يظهر لي أن شيئاً منها عبث وعديم النفع ، على أن التقدم الذي أظنني تقدمته في البحث عن الحقيقة ، قد بلغ بي غاية الرضا ومهد لي في المستقبل آمالاً تجعلني أرى أنه إذا كان من مشاغل الناس من حيث هم ناس[2] ما هو خير وذو خطر ، فلي أن أجرؤ على القول بأنه هو العمل الذي تخيرته .

وعلى كل حال فقد أكون مخدوعاً ، وقد لا يكون إلا قليلاً من النحاس والزجاج ذلك الذي أعتبره ذهباً وماساً . فإنني لأعلم مبلغ الخطأ الذي نحن عرضة له فيما يمسنا من الأمور ، ومبلغ الحذر الذي يجب أن تكون أحكام أصحابنا موضعًا له ، عندما تكون في مصلحتنا. (٤) ولكني

---

= أن يرفع طبيعتنا إلى أعلى درجة لها في الكمال (راجع كتابه إلى صديقه مرسن Mersenne في مارس سنة ١٦٣٦ في المجلد الأول من الأعمال الكاملة طبعة أدام وتانري ص ٣٣٩) .

(١) يقصد استكشافه للهندسة التحليلية وهي توفيق بين علمي الهندسة والجبر وكذلك أثباته وجود الله بالبراهين التي سيذكرها في القسم الرابع وكذلك آراءه في الطبيعيات وسيشير إليها في القسم الخامس .

(٢) يقصد الأفراد العاديين الذين يهبهم الله قدرة فوق ما لغيرهم من بني الإنسان بحيث يقومون بالمعجزات .

سأجتهد أن أبين فى هذا المقال ، ما هى الطرق التى تبعتها ، وأن أمثل حياتى فيه كأنها فى لوح تصوير، حتى يستطيع كل أن يحكم فيها حكمه، وحتى يكون علمى بمختلف الآراء فيها بما يصل إلى من صدى ، وسيلة جديدة لتعليمى ، أضيفها إلى ما أعتدت أن أستعين به من الوسائل .

واذن ليس غرضى أن أعلم المنهج الذى يجب على كل فرد اتباعه لكى يحكم قيادة عقله ، ولكن غرضى هو أن أبين على أى وجه حاولت أقود عقلى . وأن الذين ينصبون أنفسهم لاسداء النصائح ، يلزمهم أن يعتبروا أنفسهم أحذق ممن يسدونها إليهم ، وإذا زلوا فى أدنى الأمور ، استحقوا الملام . ولكن ، لما لم يكن غرضى من هذا الكتاب إلا أن أجعله تاريخاً ، وأن شئت فقل قصة ، قد يكون فيها أمثلة تحتذى ، وقد تلقى فيها أيضاً أمثلة غيرها كثيرة بحق للمرء ألا يقتدى بها ، فأنى آمل أن يكون هذا الكتاب نافعاً للبعض ، من غير أن يضر أحداً ، وأن يرضى عنى الجميع لصراحتى .

غذيت بالآداب منذ طفولتى ، وأقنعت أنه مستطاع بواسطتها تحصيل علم بين يقينى بكل ما هو نافع فى الحياة ، فاشتدت رغبتى فى تعلمها . ولكنى ماكدت أنتهى من تلك المرحلة من الدراسة ، حيث كانت العادة قبول الإنسان عند نهايتها فى مرتبة العلماء ، حتى غيرت رأيى كل التغيير. ذلك بأننى وجدت نفسى يحيرنى من الشكوك والضلالات ، مابدا لى معه أننى لم أكتسب من اجتهادى فى التعليم ، إلا تبينى شيئاً

فشيئاً جهالـتي . على أني كنت في مدرسة من أشهر (٥) مدارس أوروبا كنت أظن أنه يجب أن يكون فـيهـا علماء ، إذا كان فـي أي موضع من الأرض علماء[1] . ولقد تعلمت فيها كل مـا كان يتعلم غيرى ، بل أننى لما لم أقنع بما كانوا يعلموننا من العلوم ، تصفحت كل ما وصل إلى من كتب فى الـعلوم التى يعتـبرونها أعـجب العلوم وأندرها[2] وكنت أيضـاً أعرف مـا يحكم به الآخـرون على ، ولم أشهـد قط أنهم ينزلوننى دون منزلة رفاقى مع أن بعـضهم كان يعد لأن يشـغل مناصب أساتذتنا . ثم أنه كان يخيل إلى أن عصرنا فى ازدهاره وفى خصبه بالعقول القوية ، لا يقل عن أى عصر من العصـور السالفة . وهذا أورثى حرية فى أن أحكم بنفسى فى كل من عداى وأن أرى أن ليس فى الـدنيا من العلم ما ينطبق على ما كنت قد صيرت من قبل إلى القصد إليه[3] .

---

(١) يقصـد مدرسة لافليش الملكيـة التى أسسهـا اليـسوعـيون فى عهـد هنرى الرابع عام ١٦٠٤ . وديكارت يشهد بفضل تلك المدرسة فى كـتاب له إلى بعض أصدقائه يقول فيـه «ويجب أن أنسب ذلك الشرف إلى أساتذتى بأن أقـول بأنه ليس فى العالم مكان أحكم بأن الفلـسفة تعلم فيه خيـراً مما تعلم فى مدرسة لافليش» أعمال ديكارت ج ٢ ص ٣٧٨ .

(٢) يعنى بالعلوم العجيبـة السحر وأحكام النجوم والكيمياء (كمـا كانت قديماً) وغيرها من العلوم التى لا يطلع على خفـاياها إلا القليل ويعنى بالعلوم النادرة ماعز علـى العامة مناله .

(٣) يقصد بذلك «أن عدم كفاية العلم الذى تلقيته هو السبب الوحيد فى تضليلى إذ لا =

وعلى كل حال فأنني ما غمطت حق ما يشتغلون به في المدارس من الدروس وأني لأعلم أن اللغات التي تعلم فيها لازمة لفهم الكتب القديمة وأن طلاوة القصص توقظ النفس ، وأن حوادث التاريخ المذكورة تسمو بها ، وإذا قرئت بتمحيص فأنها تعين على تكوين الحكم[1] ، وأن قراءة كل الكتب الجيدة هي كمحاضرة مؤلفيها الذين هم خير أهل القرون الماضية بل هي محاضرة معتنى بها ، لا يكشفون لنا فيها إلا عن صفوة أفكارهم وأن للبلاغة قوة وجمالاً لا يضارعان . وأن للشعر رقة وحلاوة رائعتين جداً وأن في (٦) الرياضيات اختراعات جد دقيقة ، وتفيد كثيراً في أرضاء النفوس المتطلعة وفي تسهيل كل الفنون ، وتوفير جهد الناس ، وأن الكتب الباحثة في الأخلاق تشتمل على كثير من التعالم وعلى مواعظ كثيرة تدعو إلى الفضيلة وهي مفيدة جداً ، وأن علم أصول الدين يهدي إلى طريق الجنة ، وأن الفلسفة تعطينا وسيلة للقول في كل شئ بما هو أدنى للحق ، ولكسب الأعجاب ممن أقل منا علماً[2] . وأن التشريع[3] ،

---

= يمكن تعليله بنقص في المدرسة التي تعلمت فيها ولا في أساتذتي ولا في نفسي ولا في زماني» (تعليق ٤ جلسون ص (١١٠) .

(١) يقصد بالحكم القوة اللازمة لتمييز الحق من الباطل (أنظر التأملات الرابعة (١٢)) .

(٢) يقصد بالفلسفة فلسفة العصور الوسطى وهو يسوق قوله تهكما بها .

(٣) يعني علوم القوانين والحقوق – وقد كان ديكارت طالبا في الحقوق بجامعة بواتيه ولبث فيها سنتين من سنة ١٦١٤ إلى سنة ١٦١٦ ونال منها اجازة القانون المدني والديني في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٦ . راجع شارل آدام حياة ديكارت ص ٤٠ مذكرة أ .

والطب والعلوم الأخرى تأتى بالجاه والثروة اللذين يتعلمونها ، وأخيراً فمن الخير أن نخبرها جميعاً حتى أكثرها خرافة وبطلانا ، لنعرف قيمتها بالعدل ونحذر الخديعة فيها .

ولكنى كنت أعتقد أننى أنفقت الكفاية من الوقت فى اللغات ، بل وفى قراءة الكتب القديمة ، وأيضاً ما فيها من تواريخ وقصص : فإن محاضرة أهل العصور الأخرى تكاد تكون كالسفر ، وأنه لمفيد أن نعرف شيئاً عن أخلاق الأمم المختلفة ، حتى يكون حكمنا على أخلاقنا أصح ، وحتى لا نظن أن كل ما خالف عاداتنا هو سخرية ومخالف للعقل ، كما هو دأب الذين لم يروا شيئاً[1] ولكن إذا أسرف المرء فى صرف الوقت فى السفر فإنه ينتهى إلى أن يصير غريباً فى بلده ، ومن أسرف فى التطلع إلى ما كان يحدث فى العصور (٧) الخالية ظل فى العادة شديد الجهل بما يقع فى زمانه . وفوق ذلك فإن القصص تجعلنا نتخيل ممكناً ما ليس ممكناً من الحوادث ، بل وان أصدق التواريخ إذا لم يغير من قيمة الأشياء ولم يزدها ، كى يجعلها أجدر بأن تقرأ ، فإنه على الأقل يكاد يهمل دائماً أدنى الظروف شأناً وأقلها شهرة : ومن ثم فإن ما يبقى لا يبدو كما هو ، والذين يتخذون مما يستنبطونه منها أسوة لاخلاقهم يكونون عرضة للوقوع فى الغلو الذى وقع فيه فرسان قصصنا ، وللتطلع إلى ما فوق طاقتهم .

---

(١) يقصد الذين لا تتجاوز معارفهم حدود بلادهم .

كنت عظيم التقدير للبلاغة ، وكنت مولعاً بالشعر ؛ ولكنى رأيت أن كليهما أقرب أن يكون من المواهب النفسية ، لا من ثمرات الدرس[1] والذين لهم الحجة البالغة ، الذين يرتبون أفكارهم على أحسن وجه ، كي يجعلوها جلية ومفهومة ، يقدرون دائماً على الأقناع بما يرون ، ولو كانوا لا يتكلمون إلا بكلام العامة ، ولم يتعلموا قط علم الخطابة . والذين لهم الأخيلة الرائعة ، ويعرفون كيف يعبرون عنها بأحسن المجازات وأحلى الأساليب ، هم خيرة الشعراء ، وأن كان فن الشعر مجهولاً لديهم .

كانت تعجبنى الرياضيات على الخصوص ، وذلك لما فى براهينها من الوثاقة والوضوح ، ولكننى لم أكن ألحظ فائدتها الحقيقية ، إلا فى الصناعات الميكانيكية[2] كنت أعجب أن تكون أسسها البالغة فى متانتها

---

(١) هذه فكرة عزيزة لدى ديكارت وهو يأخذ بها منذ سنة ١٦١٩ (راجع المقدمة التعليق على ختام الجزء الأول وأرجح أنها ترجع إلى سقراط الذى يقول «إن انتاج الشعراء يرجع الفضل فيه ، لا إلى علمهم ، ولكن إلى هبة طبيعية ، أو إلى الهام ألهى شبيه بالهام الأنبياء والعرافين» أفلاطون دفاع سقراط ص ٢٢ (أعمال أفلاطون فى مجموعة الجامعات الفرنسية المجلد الأول ص ١٤٦ - ١٤٧) . ويقول سقراط فى نفس الصفحة أنه طلب إلى بعض الشعراء تفسير بعض شعرهم فكانوا لا يفهمونه جيداً . ويأخذ أفلاطون بنفس الفكرة فى حواريه فيدر ويون ويقول أن شعر الشعراء حى من آلهة الشعر أنهم ينشدونه دون تمام فهمه .

(٢) كان يهتم فى عصر ديكارت بتعليم الرياضيات لتطبيقها فى الأعمال مثل مساحة =

وقوتها لم يشيد فوقها بناء أسمى ، وبالعكس فأنني كنت أشبه كتابات القدماء (في الجاهلية)[1] الباحثة في الأخلاق بقصور جد رائعة وفخمة ، لم تشيد إلا فوق (٨) الرمل والطين . وأنهم ليرفعون الفضائل إلى أعلى أوجها . ويظهرونها أحق بالإجلال من كل شئ في العالم ؛ ولكنهم لا يرشدوننا إلى تعرفها ارشاداً كافياً ؛ وكثيراً ما يكون الذي يدعونه بأجمل الأسماء ، انما هو فقد العواطف والاحساس[2] أو الكبرياء[3] أو اليأس[4] أو قتل القريب[5] .

وكنت أجل علومنا الدينية ، وأطمع كغيري في الجنة ، ولكن لما علمت علماً مؤكداً أن الطريق إليها ليس ممهداً لأجل الجهلاء أقل مما هو

= الأراضي وهندسة ميادين الحرب وفي المقاييس والموازين المختلفة وفي استعمال الآلات الصناعية وغير ذلك .

(١) في النص الفرنسي Les anciens païens ويقصد بهم كتاب ما قبل المسيحية . ويظهر من الجملة التالية أنه لا يقصد غير الرواقيين لأن الذي يذكره وينكره من الأخلاق هو من تعاليم بعضهم .

(٢) كان الرواقيون يدعون إلى ألا يكون للأهواء العواطف أي تأثير على الحكيم كما أنه يجب أن يتحمل كل الآلات الحسية دون الاهتمام بها .

(٣) كان الرواقيون يرفعون رتبة الحكيم فوق كل رتبة ويساوونه بالاله .

(٤) وكان بعضهم يبيح الانتحار ، إذا اقتنع المرء باليأس من هناءة الحياة ، فيكون الموت في زعمهم خلاصاً من الآلام .

(٥) في النص الفرنسي Parricide ومعناها الآن قتل الأب ولكنها في زمن ديكارت كانت تفيد قتل القريب على العموم ، ويحتمل أنه يشير إلى قتل بروتس لقيصر ، وقول =

ممهد لأعلم العلماء[1] ، وأن الحقائق الموحى بها ، والتى تهدى إلى الجنة هى فوق فهمنا ؛ لم يكن لى أن أجرؤ على أن أسلمها لضعف استدلالاتى ورأيت أن محاولة امتحانها امتحاناً موفقاً تحتاج لأن يمد الإنسان من السماء بمدد غير عادى وأن يكون فوق مرتبة البشر[2] .

ولن أقول عن الفلسفة ، إلا أنه لما رأيت أن الذين كانوا يتدارسونها هم خيرة العقلاء ، ممن عاشوا منذ عصور كثيرة، ومع ذلك ليس فيها بعد أمر لا يجادل فيه ، أى ليس مشكوكاً فيه ، فإننى لم أكن قط من الغرور بحيث آمل أن أنال فيها من التوفيق خيراً من الآخرين ، ولما تأملت ما قد يكون فى المسألة الواحدة ، من آراء مختلفة ، يؤيدها رجال علماء ، على

---

= الثانى للأول عندما تلقى منه الطعنة القاتلة «وأنت أيضاً ، يابنى Tu quoque, fili mi» .

(١) الوصول إلى الجنة يكون بالإيمان والإيمان ليس من عمل العقل (راجع التعليقة التالية) .

(٢) يقصد بالمدد غير العادى الوحى الذى يفيضه الله على بعض الناس ممن يختصهم ، وهم بذلك يرتفعون فوق مستوى الإنسانية العادى . ولقد أحصى ديكارت أربعة أصول للعلم كما كان فى زمانه وهى : ١ - الأفكار الجلية بذاتها التى تحصل بدون تفكير . ٢ - ما يحصل بواسطة الحواس . ٣ - معاشرة الناس . ٤ - قراءة الكتب الجيدة . ثم يقول أن الحكمة كلها لا تكتسب إلا بتلك الوسائل الأربع أما الوحى الالهى فإنه لا يوصلنا إلى العلم بالتدريج ، شأن تلك الطرق ، بل يسمو بنا مرة واحدة إلى عقيدة معصومة من الخطأ (راجع رسالته إلى من ترجم إلى الفرنسية كتابه مبادئ الفلسفة) .

أن الحق فيها لا يكون إلا واحداً ، فإننى اعـتبرت كل ما ليس إلا راجحاً يكاد يكون باطلاً[1] .

أما العلوم الأخرى التى كانت تأخذ أصولهـا من الفلسفة ، فقد كان حكمى فيها أنه لا يستطاع أقامة بناء قوى على قواعد ليست على (٩) شئ من المتانة . ولـم يكن ما تغرى به من الجـاه والكسب[2] بكاف ليبعثنى على تحصيلهـا ، فإننى لم أكن أشعر ، بفـضل من الله ، أننى فى حالة تضطرنى إلى أن أجعـل من العلم صنعة لتحـسين رزقى ومع أنه لم يكن من دأبى أن أكون كلبياً[3] يحتـقر المجد فأننى مع ذلك لم أكن أعـبأ إلا قليلاً بمجد لم أكن لآمل قدرة على تحصيله إلا بالباطل[4] .

أما العلوم الباطلة ، فلقـد كنت أعتقد أننى بلغت من عرفان قيـمتها

---

(١) يقصد ما لا يعتمد فى اثباته على البـرهان الصحيح الذى يوقع اليقين وانما يعتمد على القياس الجدلى الذى يوقع تصديقاً شبيهاً باليقين .

(٢) يشـير إلى الجـاه الذى ينتج عن درس الفقـه والقوانـين ، وإلى الكسب الذى ينتج عن درس الطب .

(٣) أى من أتباع المذهب الكلبى ، نسبة إلى ديوجـينيس الكلبى ، ويرجح الأستاذ جلسون أن تكون فى تلك العبـارة اشارة إلى جواب ديوجينيس نفسـه إلى الأسكندر المقدونى «الذى أريده منك . هو أن تـنحرف كـيـلا تمنع عنـى الشـمس» (أنظر التـعليق (٤) ص ١٤٠) .

(٤) يشرح النص اللاتينى ذلك بما زاد فيه على الأصل الفرنسى وهو «أى نظراً لما فى هذه العلوم من معارف غير صحيحة» (أعمال ديكارت ج ٦ ص ٥٤٤) .

حداً لا أكون معه عرضة للخـديعة بوعود الكيماوى أو بتكهنات المنجم ، ولا بتضليـلات الساحر ، ولا بالتصنـع أو الزهو ممن ديدنهم أن يظهروا بأكثر مما يعلمون .

من أجل هذا فـأننى ما كدت أن تسـمح لى السن بالتحلـل من ربقة معلـمى حتى هجـرت كل الهجـر دراسة الآداب . وإذ صممـت على ألا ألتمس علماً إلا ما اشتملت عليه نفسى[1] أو ما كان فى الكتاب الكبير ، كتاب العالم ، فـإننى أنفقت بقية شبابى فى السـفر ، وأن أتصل بقصور وبجيـوش وأغشى أناسـاً من مختلف الأمـزجة والدرجـات ، وفى جمع التجارب المختلفة ، وأن ابتلى نفسى فـيما ساق إلى الحظ من مصادفات ،

---

(١) فى ذلـك يظهـر ديكارت اعتقـاده بعدم كفـاية العلم الذى كان مـوجوداً فى زمنه فى الكتب ، وعلى ذلك فهـو يبحث عن طريقـة أخرى لاستكشـاف علم جديد ، وهنا يرى أن تلك الطريقة هى فى التـفكير بعقله الحر المستقل ، لأنه كان يعـتقد أن بذور العلوم كائنة فينـا ، وأن الحقيقة تثوى فـى نفوسنا كما تثوى النار فى حـجر الصوان . ولعله كـان يريد بذلك تقليد الشـعراء الذين يعـتمـدون على الاختـراع ، أى على استخراج الحقائق من عقولهم ، وفى ذلك ينحصـر فضل الشعر أكثر من اعتمادهم على تحصـيل مادة أشعارهم من الكتب ، أو من مـحاضرة غيـرهم . (راجع ميلو Milaud أزمـة صوفـية عند ديـكارت عام ١٦١٩ (٩) فى مـجلة ما بـعد الطبـيعـة والأخلاق المجلد الثالث والعشرين ج ٤ ص ٦٠٧ - ٦٢١) وأرجح أن ديكارت عزم على ذلك عام ١٦١٦ بعد انتـهائه من درس الحقوق فى جامعة بواتيـه قبل ابتدائه فى الرحلات كما يظهر من النص .

وأن أفكر أينما كنت فى الأمور التى كانت تعرض لى تفكيراً يمكننى من أن أستخلص منها فائدة . فقد كان يبدو لى أننى أستطيع أن أجد من الحقائق ، فى التفكير الذى يفكره كل إنسان فى الأمور التى تهمه ، والتى سرعان ما تؤذيه (١٠) عاقبتها ، إن كان قد أخطأ فى الحكم ، مالا يوجد فى تفكيرات أحد النظار من رجال الآداب وهو بين جدران حجرته فيما يمس أموراً نظرية ليس لها فى الخارج أثر[1] ، ولا تكون له منها نتيجة ، إلا ما قد يدركه من غرور بها على مقدار بعدها عن العقل ، بسبب ما بذل من الفكر والحيلة كى يجعلها شبيهة بالحق ، وكانت رغبتى شديدة دائماً فى أن أتعلم كيف أميز الحق من الباطل ، كى أكون على بصيرة فى أعمالى ولكى أسير على هدى فى حياتى .

فى الحق أنى حينما كان جهدى مقصوراً على ملاحظة أخلاق الناس فإنى لم أجد فيها موضعاً ليقين ، ولحظت فيها من التباين نحو ما لحظته من قبل فى آراء الفلاسفة . وقد كان أكبر ما حصلته من فوائدها . أننى لما رأيت أموراً كثيرة . تبدو لنا من الشطط والسخرية ، ومع ذلك فإن أمماً عظيمة تجمع على قبولها والرضاء عنها ، فإننى تعلمت ألا أعتقد اعتقادا جازماً فى شئ ما يحكم التقليد أو العادة وكذلك تخلصت شيئاً

---

(١) فى ذلك يهاجم ديكارت طرق التفكير فى العصور الوسطى ، ويتهكم على عقم الجدل الذى كان يقتصر عليه العلماء .

فشيئاً من كثيـر من الأوهام ، التى تستطيع أن تخمد فينا النور الفطرى[1] وتنقص من قدرتنا على التعـقل . ولكن بعد أن أنفقت بعض السنين فى الدرس على تلك الحال فى كتاب العالم، فى الاجـتهاد فى تحصيل بعض التجـربة، فإننى عـزمت فى بعض الأيام أن أبحث أيضاً فـى نفسى وأن أصرف قواى العقلية كلهـا فى اختيار الطرق التى يجب أن أسلكها[2] وقد

(١) يقول ديكارت فى مـبادئ الفلسفـة (٦) فى الفقرة الثـلاثين من الجزء الأول «وينتج من ذلك أن ملكة المعرفة التى وهبـها الله لنا ، والتى نسميهـا بالنور الفطرى ، لا تتصور مطلقاً أى شئ ما لم يكن حقيقياً من حيث هى تتصوره ، أى مادامت تعامله بوضوح وتميز ، الخ» . وكذلك أن لديكارت حواراً وهذا عنوانه الطويل «البـحث عن الحقيقة بواسطة النور الفطرى ، الذى يعين وهو خالص وحده ، وبدون أن يستعين بالدين أو بالفلسـفة ، الآراء التى يجب أن يراها رجل شـريف فيـما يختص بكـل الأمور التى تشغل فكره ، وينفـذ إلى أسرار أعجب العلوم (٧)» ويشار إليه للإيـجاز بالبحث عن الحقيقة فقط .

(٢) سيســاعد ما يلى ذلك ، أى مطلع القسم الثانى ، علـى تعيين ذلك الوقت الذى عزم فيه ديكارت ذلك العـزم . ويتفق الشراح على أن هذا كان فى يوم ١٠ نوفـمبر سنة ١٦١٩ ، والاعتمـاد فى ذلك على قول ديكارت فى رسالة أوليمـبيكا (١) وهى من كتابات ديكارت بالقـرب من ذلك التاريخ وقد طبعت فى المجلد العاشـر فى مطبوعة ادام وتانرى) أنه وجـد فى ذلك اليوم قـواعد علم عـجيب Mirabilis scientiae fundamenta على أن هناك خلافاً فى تقديـر ذلك الاستكشاف والرأى الذى نأخذ به أنه استكشف يومئذ منهجه بأكمله ، إذ ليس عند ديكارت إلا منهج واحد وكل ما استكشـفـه فى علوم الطبيعة ومـا بعد الطبيعـة والرياضة لم يكن إلا نتيجـة لتطبيق منهجـه ، والأستـاذ آدم يـرى أن فى ذلـك اليوم اهـتدى ديكارت إلى بعض =

لقـيت فى هذا على ما يبـدو لى نجاحـاً لم أكن لألقاه لو أننى لـم أفارق (١١) قط بلادى ولا كتبى .

= استكشافاته الرياضية المهمة على أنه لا يعين ذلك الاستكشاف كما أنه لا يجزم برأيه (راجع أعمال ديكارت ج ١٢ ص ٥٠) . أما الأستـاذ ميلو فيرى أن كل تلك الآراء باطلة وأن ديكارت اهتـدى فى ذلك اليـوم إلى وجوب العـدول عن كتب الأقـدمين والاقتصار فى البحث عن الحقيقـة «التى توجد فى نفسنا بذورها كما يوجد شرر النار فى حـجر الصـوان» على الاستـعانة بالنـور الفطرى ، أو بالإلهام الذى يشـبه الهـام الشعراء أو بالبداهة . (راجع مقالة أزمة صوفية عند ديكارت عام ١٦١٩ . ولكننا رأينا فيما سـبق أن ديكارت عزم على العزم الذى يتصوره الأستـاذ ميلو عام ١٦١٦ بعد انتهائه من المدارس وقبل بدئه فى الرحلات ، وإذن فلابد أنه بعد رحلاته قد اهتدى إلى شئ آخر كما يتبين من كلامه فى آخر القسم الأول ، وعى ذلك يبطل قول ميلو (راجع تفصيل ذلك فى المقدمة) .

# القسم الثانى

كنت إذ ذاك فى ألمانيا ، عندما استدعتنى الحروب التى لم تنته فيها بعد ، ولما كنت فى عودتى من تتويج الأمبراطور[1] إلى الجيش ، ألجأنى بدء الشتاء إلى قرية[2] ، لم أجد فيها شيئاً من السمر ملهياً ، على أنه لم يكن عندى ، لحسن الحظ ، ما يقلقنى من هم أو هوى ، وكنت ألبث اليوم كله وحدى فى حجرة دافئة ، حيث كانت لى كل الفرصة لتوجيه همتى للفكر . وكان من أول ما فكرت فيه أننى لاحظت أنه كثيراً ما تكون الأعمال المؤلفة من أجزاء كثيرة ، صنعتها أيدى حذاق مختلفين ، ليس فيها من الكمال مثل ما فى الأعمال التى صنعها واحد ، كذلك نرى

(١) المقصود بالحروب حروب الثلاثين عاماً التى انتهت بمعاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ والأمبراطور هو فرديناند الثانى الذى توج قيصراً فى ٩ سبتمبر سنة ١٦١٩ (راجع كينو فيشر KUNO FISCHER حياة ديكارت وعمله ومذهبه ص ١٧٤ وما يليها من الطبعة الخامسة ، هيدلبرج سنة ١٩١٢ .

(٢) نزل ديكارت أولاً فى أؤلم Ulm حيث زار الرياضى فاولهابر Faulhaber وبقى هناك بضعة شهور . ولكن عزلته الحقيقية كانت فى نيوبرج Neuburg والمدينتان على نهر الدانوب (راجع فيشر الكتاب المذكور ص ١٧٥) .

المبانى التى بدأها مهندس واحد وأتمها هى فى العادة أجمل منظراً وأحسن نظاماً من تلك التى اجتهد فى ترقيعـها الكثيرون ، وذلك باستخدام جدر قديمة بنيت من قبل لغـاياصـ أخرى كما فى تلك المدن العتيقة ، التى لم تكن فى البدء إلا قـرى ، ثم أصبحت بتعـاقب الزمان ، مدناً كبـيرة ، فإنها فـى العادة قبيحـة التأليف إذا قورنت بالمدن المنظمـة ، التى يخططها مهندس واحـد وهو حر فى براح خال . ومع أننا إذا نظرنا إلى عمـاراتها كل على حدة ، فكثـيراً ما نجـد فيهـا من الفن مثل ما فى عـماراصـ المدن الأخرى أو أكثـر ، ثم إذا رأينا كيف نظمت ، نجدها هنا بناء عظـيماً ، وهناك بناء صغـير ، على وجه يجـعل الطرق معوجـة وغير متـساوية ، فسوف نقول أن الأقرب أنه الحظ - لا ارادة أناس (١٢) تصرفوا بعقولهم- هو الذى وضعها كذلك ، وعلى كل حال إذا لاحظنا أنه كان يوجد دائماً من العمال من يوكل إليـهم ملاحظة أن يكون فى المبانى الخاصة مـستمتع للجمهور ، عرفنا أنه من العسير أن نقوم بأعمال كاملة مادام كل عملنا هو تكمـيل عمل الغـير . وكـذلك ظننت أن الأمم التى كـانت فى زمن من الأزمنة نصف مـتوحشـة ، ولم تأخذ بالمدنيـة إلا قليلاً قليـلاً ، لم تسن قوانينها إلا حسبمـا كانت تضطرها إليه أضرار الجرائم والمنازعاصـ ، هـذه الأمـم منذ بدء اجـتماعـها ، قد اتبـعت شرائع مشـرع حكيم . كذلك يكون جد يقين أن هيكل الدين الصحـيح ، الذى شرع الله وحده أحكامه ، يجب أن يكون خيراً فى النظام من كل ما عداه إلى الحد الذى لا يبارى

وإذا تحدثنا عن الشئون الإنسانية فإني أعتقد أنه إذا كانت أسبرطة قديماً ذاص مجد زاهر ، فليس السبب فى ذلك صلاح كل قانون من قوانينها على حده ، لأن كثيراً منها كان شديد الشذوذ ، بل كان مخالفاً للأخلاق الطيبة ، ولكن السبب أنه لما كان مبدعها شخصاً واحداً ، فقد كانت جميعاً ترمى إلى غاية واحدة . وكذلك فقد رأيت أن علوم الكتب وعلى الأقل ما كان منها حججه ليست إلا جدلية[1] ، وليس له برهان ، فإنها لما كانت قد ألفت وزيد فيها قليلاً قليلاً من آراء رجال كثيرين مختلفين فإنها ليست قريبة من الحقيقة قرب الاستدلالاص البسيطة التى يكونها بالفطرة رجل عاقل فيما يعرض من الأمور . وكذلك رأيت أيضاً أنه نظراً لأننا كنا جميعاً أطفالاً قبل أن نصير رجالاً ، وأنه كان يلزمنا فى زمن طويل أن نظل تحكمنا أهواؤنا ومعلمونا ، وكان أحدهما فى الغالب يناقض الآخر ، وربما لم يكن كلاهما لينصحنا دائماً أحسن النصائح ، فإنه يكاد يكون مستحيلاً أن تخلص أحكامنا ، أو أن تكون قوية كما كانت تكون ، لو أننا استعملنا عقلنا تمام الاستعمال منذ ميلادنا ، ولم نسير قط إلا بواسطته .

وفى الحق انا لا نشاهد أن بيوص مدينة تهدم جميعها لغير غرض الا

---

(١) أى العلوم التى تعتمد على الجدل ، وهو ما كان يغلب على استدلالاص المشتغلين بالفلسفة فى العصور الوسطى . وهذه العلوم لاتصل بتلك الأقيسة إلى مراتب اليقين مثل علوم الرياضة .

أن يعاد بناؤها على نظام آخـر ، وأن تجعل طرقها موفـورة الجمال ولكن المشاهد غالـباً أن كثيرين يهـدمون بيوتهم ليعـيدوا بناءها ، بل يضطرون أحياناً إلى ذلك عندما تكون من نفسها على خطر السقوط ، وعندما تكون قواعدها غير ثابتـة . وقياساً على ذلك أيقنت أنه غير معقـول فى الحقيقة أن يضع بعض الناس خطة لاصـلاح دولة بتـغيـير كل شئ فـيهـا بادئاً بالأسس . وأن يقلبـها رأساً على عـقب ليقـومها ، أو أن يصـلح أيضاً مجـموعة الـعلوم . أو النظام المقرر فى المدارس لتـعليمهـا ، ولكن فيـما يختص بكل الآراء التى قـبلتها واعـتقدت بهـا حتى يومئـذ فأنى لم أكن لأقدر على خير من انتزاعهـا جملة واحدة من اعتقادى . وذلك لكى أحل محلها فيمـا بعد ، اما غيرها خيراً منها ، أو أعيدها نفـسها بعد أن أكون قد سويـتها بميزان (١٤) العـقل . ولقد رسـخ فى اعتقـادى أننى أكون بهذه الوسيلة أكـثر توفيقاً فى سياسـة حياتى مما لو لم أبنِ إلا على أسس عتيقة . ولم أعتمد إلا على مبادئ استسلمت للأذعان لها فى شبابى دون أن أختـبر قط أن كـانت صـادقـة . فـأنى وأن عـرفت فى ذلك شـتى المصـاعب ، فهى مع ذلك لم تكن لا تداوى ، ولم تكن أيـضاً لتـقارن بالمصاعب التى تقوم عند أصلاح ما يمس الجـمهور من أحقر الأمور ، ان هذه الأجـسام الهائـلة لعسـير رفعـها إذا هوت ، أو المحـافظة عليـها إذا تزعزعت ، وسقوطها لا يكون إلا مروعاً .

أما ما فى نظم الدول من عيوب ، أن كـان فى نظمها عيوب ، (وان

الخلاف بينها ليكفى لاثبات وجود عيوب فى الكثير منها) فان التطبيق قد لطفها كثيراً بلا ريب ، بل هو جنب من عيوبها وتلافى منها رويداً رويداً مالم يكن مستطاعاً بالحكمة . وأخيراً ، فإن تلك العيوب تكاد تحتمل دائماً أكثر مما يحتمل تغييرها : كما أن الطرق الكبيرة ، التى تتلوى بين الجبال ، تصبح قليلاً قليلاً سهلة وممهدة ، وذلك لكثرة التردد عليها ، وخير أن يتبعها السائر من أن يذهب فى طريق أكثر استقامة متسلقاً فوق الصخور منحدراً إلى بطون الوهاد .

من أجل هذا لم أكن لأقر فى شئ تلك الأمزجة المرتبكة القلقة التى لم يدعها نسب ولا مكانة لادارة الشئون العامة ، وهى (١٥) لا تبرح تعمل الفكر فى وضع خطط جديدة للإصلاح . ولو أنه تبادر إلى ذهنى أن فى هذه الكتابة أقل ما يمكن أن أتهم معه بذلك الجنون ، لندمت كثيراً على السماح بنشرها . فإن مطلبى لم يتجاوز قط الاجتهاد فى إصلاح أفكارى الخاصة ، وأن أبنى على أساس كله ملك لى . وإذا كان عملى قد بلغ بى من الرضاء ما جعلنى أشهدكم هنا نموذجاً منه[١] ، فما كنت لهذا أريد أن أنصح أحداً بتقليده . وربما كان للذين ميزهم الله فى تقسيم فضله مقاصد اسمى ، ولكننى أخاف كثيراً ألا يكون هذا العمل بالنسبة لكثيرين إلا شططاً فى الاقدام . ليس مجرد العزم وحده على التخلص من كل الآراء التى أعتقد بها المرء من قبل ، مثالاً يجب على كل فرد أن

(١) لأن المقال هو فى الحقيقة نموذج لعمل ديكارت بأكمله .

يحتذيه ، ويكاد الناس بالنسبة لعقولهم ألا يكونوا الا صنفين وذلك لا يصلح فى شئ لكليهما .

هذان الصنفان هم أولاً الذين لاعتقادهم فى أنفسهم من الحذق فوق مالهم لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من التهور فى أحكامهم[1] ، ولا يملكون من الصبر ما يستطيعون به سياسة أفكارهم كلها بنظام ، ومن ثم فإنهم إذا اتخذوا حرية الشك فى المبادئ التى تلقوها ، والابتعاد عن الطريق العام ، فإنهم لن يقدروا على ملازمة الصراط الذى يجب سلوكه للسير الأقوم ، وسيظلون فى ضلال كل حياتهم .

ثم آخرون أوتوا حظاً من العقل ، أو من التواضع ، كى يحكموا بأنهم أقل قدرة على تمييز الحق من الباطل من أناس يصلحون أن يكونوا لهم معلمين ، فهم أولى بأن يقنعوا باتباع آراء هؤلاء من أن يبحثوا بأنفسهم عما هو أحسن .

أما أنا فلقد كنت أكون بلاشك فى عداد هؤلاء الأخيرين لو (١٦) لم يكن لى إلا أستاذ واحد ، أو لم أكن عرفت الخلاف الذى كان فى كل زمان بين آراء أكبر العلماء . ولكننى لما كنت قد تعلمت ، منذ أيام المدرسة ، أنه لا يمكن أن نتخيل أمراً مهما بلغ من الشذوذ والبعد عن

(١) التهور هو أحد مصادر الخطأ عند ديكارت ، وهو ينحصر فى الجزم بالحكم قبل تبين اليقين فيه أى فى التهافت إلى المطالب قبل تحقيق المقدمات .

التصديق.؟ الا وقد قال به أحد الفلاسفة[1] ، ثم أننى عرفت فى رحلاتى أن كل الذين لهم عواطف مخالفة لعواطفنا كل المخالفة ، ليسوا من أجل هذا برابرة ولا متوحشين ، ولكن الكثيرين منهم يستخدمون العقل مثلنا أو أكثر منا . ولما تأملت فى أن الرجل نفسه ، بنفس عقله ، إذا نشأ منذ طفولته بين فرنسويين أو ألمانيين ، فإنه يصبح مختلفاً عما كان يكون ، لو أنه عاش دائماً بين صينيين أو كانيباليين[2] ، وكيف أن الشئ الواحد حتى فى أزياء الملابس ، الذى أعجبنا منذ عشر سنين ، والذى ربما يعجبنا أيضاً قبل أن تمضى عشر سنين ، يبدو لنا الآن شاذاً ومضحكاً : بحيث تكون العادة والتقليد هما اللذان يؤثران فى آرائنا أكثر من أى علم يقينى ، وعلى كل حال فإن موافقة الكثرة ليست دليلاً ذا شأن على الحقائق التى يتعسر كشفها ، فإنه أقرب إلى الاحتمال أن يجدها رجل واحد من أن تجدها أمة بأسرها : وأذن فلم أكن لأستطيع أن أختار رجلاً[3] كانت تبدو لى أفكاره واجبة التفضيل على آراء الآخرين ، ووجدتنى كأننى مضطر إلى أن أتولى بنفسى توجيه نفسى .

---

(١) كلمة مشهورة لشيشرن هذه ترجمة نصها اللاتينى «لا يوجد قول مخالف للعقل لم يقل به من قبل بعض الفلاسفة» (راجع جلسون التعليق على المقال ص ١٧٨) .

(٢) Des Cannibales هم أكلة اللحوم البشرية . وفى النص اللاتينى استبدلت بها كلمة أمريكيين Americanos والمقصود بالطبع سكان أمريكا الأصليون قبل الفتح الأوروبى .

(٣) أى من مؤسسى المذاهب الفلسفية من اليونان القدماء .

ولكن ، كـان مثلى كـمثل رجـل يسيـر وحده فى الظلمـات (١٧) فصممت على أن أسير الهوينى ، وأن أستعين بكثير من الاحتياط فى كل الأمور ، فـلو لم أتقدم إلا قليـلاً جداً ، كنت على الأقل قـد سلمت من الزلل . حـتى ولم أشأ ألبتـة أن أبدأ بأن أنبذ جـملة أى رأى من الآراء التى قد تكون استطاعت فى بعض الأوقات أن تتـسرب إلى اعتـقادى ، دون أن يقـودها إليه العـقل ، من قبل أن أكـون قد صـرفت ليكفى من الزمن لوضع مـشـروع للعـمل الـذى أتولاه ، ولأن أتحـرى لمنهج الحق للوصول إلى معرفة كل الأمور التى يكون عقلى أهلا لها ولما كنت أحدث سنا[1] ، اشـتغلت قليـلاً بالمنطق من بين أقسـام الفلسفـة ، وبالتـحليل الهندسى[2] والجبر من بين أقسـام الرياضيات ، وهى ثلاثة فنون أو علوم

---

(١) المرجح أنه يقـصد زمـان وجوده فى مـدرسة لافليش ، لأن النص الذى يسـبق هذا مباشرة يوضح لنا أن ديكارت كان يتكلم عن أوائل عـهده باستكشاف المنهج أى عام ١٦١٩ ، وأذن فعندما يقـول «لما كنت أحدث سناً» فهو يعنى مـا قبل ذلك التاريخ . ثم أنه سيـأخذ فى نقد الـفلسفة والرياضـيات التى كانت تعلـم فى المدارس ، ومنها مدارس اليسوعيين التى كان هو فى احداها .

(٢) ينحصر التحلـيل باعتباره جزءاً من علم الهندسة ، لا كمنـهج للاستدلال والبرهان ، فى حل المسائل بتحويلها جزئياً إلى مـسائل أخرى أبسط وأعم ، فمثلاً لإيجاد النقطة المتسـاوية البعـد عن ثلاث نقط ، فإنه يجب أن تكون تـلك النقطة أولاً متـساوية فى البعد عن نقطتين ، أى أن تكون على العمود المقـام من منتصف المستقيم الذى يصل النقطتين ، ولايجاد النقطة المطلوبة يجب أولاً إيجاد المحل الهندسى الذى هى جزء منه (راجع هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٥٥ ، ٥٦) . أما إذا كان الـتحليل باعتباره =

كان يبدو لى أنها لابد أن تمد مشروعى بشئ ولكننى ، عند امتحانها تبينت ، فيما يختص بالمنطق أن أقيسته وأكثر تعليماته الأخرى هى أدنى

---

= منهجاً للاستدلال ، فهو ما يقول عنه اقليدس أنه يفرض أن المطلوب ثابت ، ثم ينتقل منه بطريق الاستنتاج حتى يوصل إلى قضية أخرى ثابتة قبل ، وبذلك يتم البرهان على المطلوب (راجع لالاند مقالة التحليل Analyse فى المعجم الفلسفى ١١) وهذا المعنى هو ما يرجح هملان ، ص ٥٦ وأستاذنا المسيو لالاند أنه مقصود ديكارت . أما المسيو جلسون غيرى أن معاصرى ديكارت لا يرون أن التحليل كمنهج للاستدلال، يقابل التحليل يتتبع ذلك وأن ينظر بعناية فى كل ما يحويه ، فإن فهمه للشئ الذى برهن عليه باعتباره جزءاً من علم الهندسة (انظر التعليق ٤ ص ١٨٣) ويشرح ديكارت نفسه التحليل باعتباره منهجاً بقوله : «فى التحليل يستنبط المعلوم من المجهول وذلك بفرض المجهول معلوماً والمعلوم مجهولاً» هذا النص ذكره أولاً رافيسون Ravaisson بدون إشارة إلى موضعه ، ويتبعه فى ذلك كثير من المؤرخين (انظر هملان ص ٧٩ ، ٨٠) ويقول فيه أيضاً «يظهر التحليل حقيقة ما وصل به إلى الشئ تبعاً لمنهج ، ويبين كيف تتوقف المعلولات على العلل ، بحيث إذا شاء القارئ أن يتتبع ذلك وأن ينظر بعناية فى كل ما يحويه ، فإن فهمه للشئ الذى برهن عليه كذلك ، لن يكون أقل كمالاً ، ولن يجعل ذلك الشئ أقل اختصاصاً به ، مما لو أنه هو الذى توصل إليه وأستكشفه بنفسه» (الردود على الاعتراضات ١٢) وميزة التحليل البارزة التى توافق روح الفلسفة الديكارتية هى ما أبداه ليبنتز فى علم الجوهر الفرد (مونادو لوجيا) بقوله «عندما تكون حقيقة لازمة ، فإن الإنسان يستطيع إيجاد حجتها بالتحليل ، ذلك بتحليلها إلى أفكار وحقائق أبسط حتى يصل المرء إلى الأفكار والحقائق الأولية» (الفقرة ٣٣ ، انظر الكتابات الفلسفية Philosophische schriften طبعة جرهاردت ج ص ٦١٢) .

أن تنفع فى أن نشـرح للغيـر مـا نعرف من الأمـور ، لا فى تعلم تلك الأمور[1] بل هـى كفن (لل)[2] ، ينفع في أن نتكلم فيمـا نجهل من غير

(١) درس ديكارت في كليـة لافليش مـنطق المدرسـة وقرأ فـيـهـا المدخل لفـورطريوس (ايساغـوجى) ومقـولات أرسطو (قاطيغـورياس) وكذلك تحليل القـياسى (أنالو طيـقا الأولى) والبرهان (أنالو طيقـا الثانية) والعبارة (بارامـيناس) (راجع بيان الكتب التى كان مقرراً درسها في هملان مذهب ديكارت ٣ ص ١٣ ، ١٤ وجلسون التعليق ٤ ص ١١٨). وهو يأخذ على منطق المدرسة أى على القياس (سولوجسموس) أنه عقيم لا يساعد على الاختـراع ، لأنه إذا وضعت المقدمـات وكان الحد الأوسط في مكانه ، فإن استخراج النتيجة لا يحتاج إلى أكثر من تـعبير لغوى وبعبارة أخرى فإن النتيجة لا تقـوم بأكثـر من أن تنقـل ، تبـعاً لأخص المقـدمتين ، وعلى حـسب موضع الحـد الأوسط ، قولا هو من قبل صادق على الحـد الأوسط وبين الثبوت له ، وبذلك لا يضيف القـياس شيئـاً إلى معرفتنا . أمـا قول ديكارت بأن أقيـسة المنطق تنفع فى أن نتكلم فيمـا نجهل دون حكم ، ومعنى الحكم عنده تمييـز الحق من الباطل ، فالمرجح أنه يوجه باعتراضه إلى منطق الماصدق ، لأن الحكم باعتبار الماصدق لا يستلزم انتباهاً كثيـراً من النفس ، أما باعتبار المفهـوم فلا يتسنى الحكم دون انتباه العـقل إلى معانى الحدود .

تذنيب * لكل حـد ماصـدق وهو الأفراد التى يطـلق عليهـا ذلك الحد ، فـمثـلاً ماصدق إنسان هو زيد وعمر وكل الأشخاص الإنسـانية ، وللحد أيضاً مفهوم وهو المعنى الذي يفيده ذلك الحد ، فـمثلاً مفهوم إنسان هو كونه حـياً وحيواناً ومن أهل السلسلة الفقرية ومن ذوى الثدى الخ .

(٢) هو رايموند لل Lulle العالم الفيلسـوف الكيماوى الرحالة المبـشر . وهو من أعجب شخصـيات العصـور الوسطى . ولد فى بالما بجزيرة ماجوركا سنة ١٢٣٥ ومات =

تميز ، ومع أن ذلك العلم يشتمل فى الحقيقة على تعليمات كثيرة جداً صحيحة ومفيدة ، فإن فيه أيضاً غيرها ، أما ضارة وأما عديمة النفع ، وهى مختلطة بها بحيث يكاد يكون فصلها عنها من المتعسر ، مثل استخراج ديانا أو منيرفا من قطعة من الرخام لم تنحت بعد[1] ثم أنه فيما

---

= مرجوماً فى ٣٠ يونيه سنة ١٣١٥ . وقد تعلم علوم العرب لغتهم فى الأندلس كى يدعو المسلمين إلى المسيحية ، ويظهر أن جرأته وحماسته الفائقتين كانتا تشفعان له فى غض أمراء المسلمين عنه والتسامح معه . وله مؤلفات كثيرة جداً يقول البعض أنها تبلغ أربعة آلاف كتاب وقد ضاع أكثرها (أنظر تاريخ حياته وموجزاً عن مؤلفاته فى رسالة زويمر Zwemer ريموند لل أول مبشر بين المسلمين القاهرة سنة ١٩١٥) . ولرايموند لل مؤلفات بالعربية ، أمكن أخيراً احصاء ثمانية منها ، على أنها غير موجودة (انظر مجلة الدروس الإسلامية Rev. des études islamiques السنة الأولى (١٩٢٧ الكراسة الأولى ص ٣٥) ويعنى ديكارت بفن كل ماهو معروف بالفن الكبير Ars magna وقد صنعه لل للتغلب على صعوبتين فى منطق أرسطو : الأولى استكشاف المقدمات أو المبادئ اللازمة للوصول إلى نتيجة مبرهنة علمية ، والثانية إيجاد الحد الأوسط إذا وجد الطرفان ، وهو يلجأ فى هذين المشكلين إلى فنه الكبير الذى يجعل من الفكر آلة مسخرة بحيث حق لديكارت أن يحكم عليه حكمه (انظر لشرح الفن الكبير مقالة لل فى معجم العلوم الفلسفية Dictionnaire des sciences philosophiques تحت إدارة فرانك FRANCK وكذلك برهييه BREHIER تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٧٠٠ وما يليها من الطبعة الأولى باريس سنة ١٩٢٦ ومابعدها) .

(١) ديانا هى ابنة جوبيتر كبير الآلهة عند الإغريق والرومان ، وكانت ملكة الغابات ، ومنيرفا وتسمى أيضاً بلاس أثينا كانت آلهة الحكمة والفنون .

يختص بتحليل الأقـدمين وبجبر المحدثين ، ففوق أنهـا لا تتسع إلا لأمور مجردة جداً ، وتبـدو كأنها لا تطبيق لها ؛ فإن الأول مـقصور دائماً على النظر فى الأشكال ؛ بـحيث لا يقـدر على أعـمـال الفهـم دون اجهـاده للخيال[1] ، وفى الأخير يتقـيد بقواعد ورموز جعلت منه فناً (١٨) مـبهماً وغامـضاً يحيـر العقل ، بدلاً من أن يكون علماً يثـقفه . وهذا مـا كان سبباً فى أنى فكرت فى وجوب البحث عن منهج آخر يـكون مع احتوائه على مزايا تلك العلوم الثلاثة ، خالياً من عيوبها . وكما أن كثرة القوانين كثيراً مـا تهيئ المعاذير للنقائص[2] ، بحيث تـكون الدولة خيرا حـكماً

---

(١) أنظر التعليقات على كلمة الخيال فى الكلام على قوى النفس فى القسم الخامس .

(٢) يرى هملان فى ذلك النص اعـترافاً من ديكارت بـالنقص فى كتابه القـواعد الذى لم يكمله على حسب مشروعه لأنه كان ينوى جعله فى ست وثلاثين قاعدة ، ولكنه بين أيدينا فى واحدة وعشرين فقط ، وأذن فيظن هملان فى قوله «أن كثرة القوانين كثيراً ما تهيئ المعاذير للنقائص» اشارة إلى ذلك النقص (أنظر مذهب ديكارت ٣ ص ٤٨).
ولقد أهتم ديكارت منذ حداثته بالبحث عن قواعـد عامة قليلة العدد لقيادة العقل في تحـرى الحقيقـــة وفى ذلـــك من أقواله والتى يرجع تاريخـها إلى عهد شبابه قوله : «ان أحكام العلم هى أرجاعـه كل شئ إلى قليل من القواعد العـامة» (أنظر ص ١٣ من أعمـــال ديكارت غير المطبوعـة ١٤ نشرها الكونت فوشيه دى كارى Foucher de Careil فى باريس ١٨٥٩ - ١٨٦٠) .

ثم أننا نرى أن ديكارت يقتصر فى المقال على أربع قواعد فقط ، بينما يبسط فى كتابه القواعـد واحدة وعـشرين قـاعدة ومع ذلك فـهى ناقصـة ، ولا تزيد فى شئ عن قواعد المقال ، وهذا راجع إلى أن المقال كتب بعـد القواعد ولو أنه نشر قبله (أنظر =

ونظاماً عندما لا يكون لديها من القوانين الا قليل جدًا فتصبح هذه القوانين مراعـاة بدقة كثيـرة ، كذلك اعتـقدت أنه بدلاً من هذا العدد الكبـير من المبادئ التى يتألف منهـا المنطق ، فالأربعة التالية حـسبى بشرط أن يكون عزمى على ألا أخل مرة واحدة بمراعاتها صادقاً ودائماً .

الأول : ألا أقبل شـيئـاً ما على أنه حق ، مـا لم أعرف يقـينا أنه كذلـك : بمعنى أن أتجنب بعناية التـهور[١] ، والسـبق إلى الحكم قـبل النظر[٢] ، وألا أدخل فى أحكامى إلا مـا يتمـثل أمـام عقلى فى جـلاء وتميز[٣] ، بحيث لا يكون لدى أى مجال لوضعه موضع الشك .

---

= جلسـون التعليـق ٤ ص ١٩٦) وهناك رأى آخر قـديم يقـول به الأستـاذ ناتورب Natorp فى كتـابه المشهـور نظرية المعرفـة عند ديكارت ١٥ ص١٦٥ ومحـصله أن القواعد الاثنتى عشرة الأولى فى كتاب القواعد هى شرح لقواعد المقال الأربع (أنظر يونجمان Jungmann رينيه ديكارت ، مبحث فى عمله ١٦ ص ٤ ، ٥) .

(١) التهور وبالفرنسية Précipitation ويعنى به ديكارت الحكم قـبل أن يصل العـقل إلى يقين كامل وقد شرحناه سابقاً ص ١٢٥ تعليقه رقم ١ .

(٢) السـبق إلى الحكم قبل النظر وبالفـرنسـية Prévention وهو فـى نظر ديـكارت أول مصـادر الخطأ ، ويقصد به أن يكون للمـرء فى بعض المسائل أحكام يأخذ بهـا قبل فحصها بعقله المستقل ، وهذه الأحكام اما أن تكون مأخوذة من زمن الطفولة عندما يكون الاتصال بين النفـس والبدن وثيقاً جـداً بحيث يكاد العقـل لا يفكر فى أبعد مما يحس البـدن (أنظر مبادئ الـفلسـفة ٦ ج ١ الفـقرة ٧١) وامـا أن تكون تلك الأحكام السابقة للتفكير الشخصى مأخوذة عن السلف بالنقل دون نقد .

(٣) أسمى المعرفة جلية إذا كانت حاضرة وظاهرة أمـام نفس منتبهة ، مبادئ الفلسفة ٦ ج ١ الفقرة ٤٥ . أما المعرفة المتميزة فهى ما كانت ذات حدود معينة بحيث لا تختلط =

الثانى : أن أقسم كل واحدة من المعضلات التى سأختبرها ، إلى أجزاء على قدر المستطاع ، على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه[1] .

الثالث : أن أسير أفكارى بنظام ، بادئاً بأبسط[2] الأمور وأسهلها معرفة[3] كي أتدرج قليلاً قليلاً حتى أصل إلى معرفة أكثرها ترتيباً ، بل وأن أفرض ترتيباً بين الأمور التى لا يسبق بعضها الآخر بالطبع .

والأخير ، أن أعمل فى كل الأحوال من الاحصاءات الكاملة

---

= مع غيرها ، ويرى ديكارت أن المعرفة تصح أن تكون جلية وغير متميزة مثل شعور المرء بألم موجع فإن المعرفة هنا حاضرة وظاهرة ولكنها غير متميزة لاضطراب حكم المرء فى طبيعة الألم ولكن العكس لا يصح (راجع المبادئ ٦ ج ١ فقرة ٤٦) . وتسمى تلك القاعدة الأولى بقاعدة اليقين .

(١) تسمى هذه القاعدة التحليل .

(٢) البسيط هو ما ليس له أجزاء وهو أما ما يعرف كله أو يجهل كله (انظر القواعد (٦) : الثانية عشر) .

(٣) هذا الاصطلاح «أسهل الأمور معرفة» غامض عند أرسطو وفى العصور الوسطى وهو يفد من جهة ما نعرفه أحسن معرفة ، ومن جهة أخرى أكثر الأمور قبولاً للمعرفة مطلقاً وبالطبع ، أو أكثرها قبولاً للفهم (أنظر روبان Robin الفكر اليونانى La pensée grecque ص ٣٠٥ وكذلك برنشفيك Brunschvigg الرياضة ومابعد الطبيعة عند ديكارت ١٧ . وهذه القاعدة الثالثة تسمى قاعدة التأليف والتركيب .

والمراجعات الشاملة ما يجعلنى على ثقة من أننى لم أغفل شيئاً[1] .

هذه السلاسل الطويلة من الحجج ، وكلها بسيطة وسهلة ، التى اعتاد أصحاب علم الهندسة الاستعانة بها للوصول إلى أصعب براهينهم ، يسرت لى أن أتخيل أن كل الأشياء ، التى يمكن أن تقع فى متناول المعرفة الإنسانية تتتابع على طريقة واحدة . وأنه إذا تحامى المرء قبول شئ منها على أنه حق مع أنه ليس حقاً ، وإذا حافظ دائماً على الترتيب اللازم لاستنباط بعضها من بعض ، فإنه لا يمكن أن يوجد بين تلك الأشياء ما هو من البعد بحيث لا يمكن إدراكه ، أو من الخفاء بحيث لا يستطاع كشفه . ولم يعنينى كثيراً البحث عن الشئ الذى تدعو الحاجة إلى لبدء به لأننى عرفت من قبل أنه يكون بأبسط الأشياء وأسهلها معرفه ، ولما لاحظت أنه بين كل من بحثوا من قبل عن الحقيقة فى العلوم . ليس

(١) تسمى تلك القاعدة بقاعدة الاستقراء التام Enumération وهو عند ديكارت ينحصر فى «تحرى كل ما يتصل بمسألة ما ، وينبغى أن يجتهد فى ذلك التحرى ويعنى به بحيث يمكن أن يستنبط منه بيقين أننا لم نهمل شيئاً بخطأ منا» القواعد ١ القاعدة السابعة ومع أن ديكارت يطلق على تلك العملية اسم «الاستقراء» فإنها فى الواقع كما يقول هملان (ص ٧٣) «قياس فى طريق التكوين» . وهو يختلف عن الاستقراء القديم فى أنه مع تأسيسه علاقات بين الحدود أ ، ب وبين ب ، ج وبين ج ، د وبين درس يساعد على أقامة علاقة واحدة بين أ ، س وبذلك يكون الاستقراء الديكارتى وسيلة لزيادة المعرفة والاستكشاف Ars inveniendi (راجع هانكان منهج ديكارت ٢ ص ٧٧٢) .

إلا الرياضيين هم الذين استطاعوا أن يجدوا بعض البراهين ، اعنى بعض الحجج الوثيقة اليقينيـة ، فإننى لم أشك فى أنه بنفس تلك الأشياء كانوا يدرسون ، على أنى لم أمل منها أى فائدة أخرى ، غير تعويد عقلى على أن يألف الحقائــق ، وألا يقنع البتة بالحجج البـاطلة . ولكننى لم أعزم قط ، لأجل هذا ، على تعلم كل هذه العلوم الخاصة التى يسميها الجمهور بالرياضيات ، وللاحظتى أنه مع أن موضوعاتها متباينة (٢٠) فأنها تتفق جميعاً ، فى أنها لا تبحث إلا عمـا فيها من النسب المختلفة أو المقادير ، فكرت فى أنه خيـر ان اقتصر على درس هذه المقادير عـلى العموم ، وألا أفرضها إلا قائمة بالموضوعـات التى تعين على تسهيل معرفتى لها بل من غير أن أقصرها عليها البتة كى تزيد قدرتى على تطبيقها فيما بعد على كل ما عداها من الموضوعـات التى توافقها[١] ولما لاحظت بعـد ذلك أننى ، لمعرفة تلك المقادير ، محتاج فى بعض الأحايين إلى أن اعتبرها كل واحد على حـدة ، وفى أحايين أخـرى إلى أن أكتـفى بتذكـرها ، أو إلى أن أجمع عدداً كـثيراً منها (فى وقت واحـد) ، فكرت أنه لكى يحسن النظر فى كل واحد منها على حدة وجب على أن أفرضهـا خطوطاً (مستقيمة) ، لأننى لم أجد شيـئاً أبسط منها ولم أقدر أن أعرض لخيـالى وحواسى ما

(١) «هذا هو العزم عـلى درس النسب فى ذاتها باسـتقلالهـا عن كل مادة تتـعلق بها ، وذلك ما سـيؤدى بديكارت إلى اختـيـار الخطوط كرمـوز للتعـبير عن كل المـقادير» جلسون التـعليق ٤ ص ٢١٨ ومعنى هذا تفكيـر ديكارت فى العلم الذى استـحدثه وهو الهندسة التحليلية التى سيتحدث عنها فى الصفحة الآتية .

هو أكثـر تميزاً منها ، ولكن لأجل تذكـرها ، أو لجمع الكثيـر منها (فى وقت واحد) ، وجب على أن أفسرها برموز أكثر مـا تكون إيجازاً[١] ، وبهذه الوسيلة ، استعير خـير ما فى التحليل الهندسى والجبر ، وأصحح كل عيوب أحدهما بالآخر[٢] .

وفى الحقـيقة فأنى اسـتطيع أن أقول أن المراعاة الـدقيقة لهـذا العدد القليل من المبادئ الذى اخترته قد هونـت على كثيراً حل كل المسائل التى يتناولهـا هذان العلمان ، حـتى أنه فى شـهرين أو ثلاثة مـضيـتهـا فى اختبارها ، وكنت قد بدأت بأبسط الأمور وأعمـها ، وكل حقيقة وجدتها كانت قاعـدة أعانتنى فيمـا بعد على وجود أخرى ، (٢١) فـأننى لم أنته

(١) استعمل ديكارت حروف الهجاء كرموز موجزة للدلالة على الكميات المعلومة كما أنه أول من استعمل الحرفين س X وى Y للدلالة على الكميـاتِ المجهولة . ونحن مع الذين يرون أن الـ س كرمز رياضى يدل على المجـهول الذى يطلب العلم به هو من أصل عربى ، لأن العرب كـانوا يستعملون للأشارة إلى ذلك المجـهول كلمة «شئ» وأخـذها عنهم الأسـبـان ، ولما لم يكن فى لغـة هؤلاء مـا يقـابل حـرف الشين ، استعاضوا عنها بالسين X) أنظر كازانوفا Casanova تعليم العربـية فى الكوليج ده فرانس ص ١٢ باريس سنة ١٩١٠ ومـحمود الخضـيرى العرب والرياضـة فى مجلة الزهراء ج ٦ م ٤ شعبان ١٣٤٦ .

(٢) لأن ديكارت باسـتحداثه الهندسـة التحليلية بفـضل تطبيق منهـجه قد جـمع بين مزية الهندسة بدرس الخطوط – وهذا تيسير للدرس لما فيه من استعانة بالخيال – وبين مزية الجبر بالإيجاز فى الرموز .

فقط إلى حل كثير منها كنت أجده فيما قبل معضلاً جداً بل بدا لى أيضاً قبيل النهايـة ، أننى قـادر أن أحـدد حتى فى المسائل التى أجهلها ، بأى الطرق ، وإلى أى حـد ، يسـتطاع حلهـا ، وفى هذا ربما لا أظهـر لكم رجلاً فارغاً ، إذا لاحظتم أنه ليس للشئ الواحد إلا حقيقة واحدة ، فمن وجدها فقد عرف من هذا الشئ كل ما يستطاع عرفانه ، فمثلاً إذا قام طفل تعلم الحساب بعملية جمع حسب قواعده ، فإنه يستطيع أن يثق أنه وجد فيـما يختص بحـاصل جمع المسـألة التى هو بصددها ، كل مـا يستطيع العـقل الإنسـانى أن يجـده . لأن المنهج الذى يعلم المرء اتبـاع التـرتيب الصحيح ، واحـصاء كل الظروف بدقة فى الشئ الذى يتحـراه ، يشتمل على كل ما جعل قواعد علم الحساب موثوقاً بها .

ولكن أكثـر ما أرضـانى من ذلك المنهج ، هو ثقتى أننى بـواسطته استعمل العقل فى كل أمر ، أن لم يكن على الوجه الأكمل ، فعلى خير ما فى استطاعتى على الأقل ، ذلك فوق أننى كنت أشعر فى تطبيق ذلك المنهج أن عقلى كان يتعود شيئاً فشيئاً على تصور مايتصوره على وجه أشد وضوحاً وأقـوى تميزاً ، وأننى إذ لم أقصر هذا المنهج على مـادة معينة ، فقد كـان لى الأمل أن أطبقه تطبـيقاً مفـيداً أيضاً على معـضلات العلوم الأخرى كما فعلت بمعضلات علم الجبر[1] وليس معنى هذا أننى أقتحمت

---

(١) فى النص اللاتينى ، كما فعلت بمعضـلات الهندسة أو الجبر» أعمال ديكارت الكاملة مطبوعة أدم وتانرى ج ٦ ص ٥٥٢ .

بادئ الرأى امتحان كل ما يعرض من معضلات العلوم ، لأن هذا نفسه مخالف للنظام الذى يوجبه المنهج[1] . ولكن لما لاحظت أن مبادئ تلك العلوم يجب أن تكون (٢٢) مقتبسة كلها من الفلسفة ، التى لم أكن وجدت فيها بعد شيئاً يقينياً ، فكرت فى أنه يجب على أن أحاول أولاً أن أقرر فى الفلسفة أصولاً يقينية ، ولما كان هذا أهم شئ ، والتهور والسبق إلى الحكم قبل النظر أخوف ما يخاف فيه ، وجب على ألا أصمم على المضى فيه ما لم أبلغ من العمر سناً أنضج من سنى يومئذ[2] وكانت ثلاثة وعشرين عاماً ، وما لم أكن أنفقت قبلاً زمناً كثيراً فى إعداد نفسى له سواء كان ذلك بأن أنزع من عقلى كل الآراء الفاسدة ، التى كنت تلقيتها قبل ذلك ، أو بأن أجمع التجارب الكثيرة ، كى تكون فيما بعد مادة استدلالاتى وأن أروض نفسى دائماً على المنهج الذى الزمت نفسى به ليتزايد رسوخى فيه .

---

(١) أى للمبدأ الثالث المسمى بقاعدة التاليف (أنظر جلسون التعليق ص ٢٢٦) .

(٢) يقصد شتاء ١٦١٩ حيث كان فى معتزله وحيث اهتدى إلى منهجه لأول مرة ، ومن المعروف أن ديكارت مولود سنة ١٥٦٦ .

# القسم الثالث

ثم أنه لما كان لا يكفى قبل البدء فى تجديد المسكن الذى تقيم فيه أن نهدمه ، وأن نحصل مواد العمارة والمعماريين ، أو أن نعمل بأنفسنا فى العمارة ، وأن نكون عدا ذلك قد وضعنا له الرسم بعناية بل يجب أيضاً أن يكون لنا مسكن آخر نستطيع أن نأوى إليه فى راحة أثناء العمل فى ذلك المسكن ، وكذلك لكى لا أظل متردداً فى أعمالى . حينما يجبرنى العقل على ذلك فى أحكامى ، ولكى لا أحرم نفسى منذ الآن من أسعد حياة أقدر عليها ، فأننى وضعت لنفسى قواعد للأخلاق مؤقتة[1] لا تشتمل إلا على ثلاث حكم أو أربع أدلى إليكم بها :

---

(١) أى غير نهائية . والحقيقة أن هذا التعبير أدى إلى خلاف كبير بين مؤرخى الفلسفة الديكارتية ، لأن ديكارت يقول فى تنبيهه الذى صدر به المقال أنه استنبط قواعد الأخلاق الواردة فى القسم الثالث من منهجه ، وكذلك يقول فى القسم السادس ص ٦١ أنه يقيس أخلاقه على منهجه على أنه يقرر هنا وفى أمكنة أخرى أن هذه الأخلاق مؤقتة ، . ويعرفنا مخطوط جوتنجن وقد نشره لأول مرة الأستاذ آدم سنة ١٨٩٦ ثم ظهر فى الأعمال الكاملة فى المجلد الخامس) بأن ديكارت كتب قواعده الأخلاقية وهو نادم وذلك خشية أن يتهمه المشتغلون بالعلم وغيرهم بأنه لا دين له =

الأولى أن أطيع قـــوانين بلادى وعـــوائدها ، مع ثبـــات فى (٢٣) محافظتى عـلى الديانة التى أنعم الله على بأن نشأت فيهـا منذ طفولتى ، وأن أحكم نفسى فى كل أمر آخر ، تبعـاً لأكثر الآراء اعتدالاً ، وأبعدها عن الأفـراط ، والتى أجمع على الرضـاء بهـا فى العمل ، أعـقل الذين سأعيـش معهم ، لأننى لما بدأت منذ ذلك الحين ألا أقيم لآرائـى الخاصة أى اعتبار - وذلك لأنى أردت أن أختبـرها جميعاً - أيقنت أنه ليس فى

---

= ولا أيمان ، وكذلك خشـية أن يسيئـوا فهم منهجه ، وقد كـتب إلى صديق له فى أول نوفمبر سنة ١٦٤٦ يقول لو أنه وضع أخلاقاً نهائية لما أبقى له الناقدون راحة ما ، لأن طبيعـياته لم تنل القبول عند أولـى الأمر ، كما أن البعض أتهـمه باللاأدرية لأنه نقض أقول اللاأدريين ، وقال عنه البعض الآخـر أنه ملحد مع أنه أثبت وجود الله ، وغـير ذلك (أنظر الأعــمــال الكاملة ج ٤ ص ٥٣٦) ومن المعـروف أن ديكارت فى تصنيفه للعلوم فى مقدمته لمبادئ الفلسـفة ٦ جعل الأخلاق فى قمة العلوم وقال أنها تستلزم معرفة كاملة للعلوم الأخرى ، ولمـا كان ديكارت لم يستطع أتمام طبيعياته ولا أن يطبقها على الميكانيكا والطب فإنه لم يستطع وضع أخلاقه النهائية مع عنايته الكثيرة بعلم الأخلاق (راجع هملان الكتاب المذكور قبلا ٣ الفصل الرابع والعشرون وبوترو Boutroux العلاقـة بين الأخلاق والعلم فى فلسـفة ديكارت فى كـتابه دروس فى تاريخ الفلسفة ١٣ ص ٢٩٩ ومـا يليها) على أننا نعتقـد أنه لو أتم ديكارت مذهبه فى الأخـلاق لما نقض ما كـتبـه فى المقال ، والـذين قالوا أن ديكارت مـال إلى المذهب العقلى فى الأخلاق فيما قاله عن الأخلاق بعد المقال لم يفطنوا إلى أن ديكارت يفرق بين عمل العـقل فى العملى أى فى الأخلاق وعمـله فى النظرى مع تقريره دائمًا أن طبيعة العقل تقتضى ذلك وهذا ما سيوضحه فيما يتلو من القسم الثالث .

استطاعتى أن أعمل خيراً من اتباعى لآراء أعقل الناس ، ومع أنه ربما كان بين الفرس والصينيين من هم ذوو عقول كـعقولنا ، فقد بدا لى أن الأنفع هو تدبير أمرى تبعاً للذين أعيش معـهم ، ولأجل أن أعرف ماهى حقيقة آرائهم ، كان واجباً على أن أعنى بما يعملون لا بما يقولون ، ليس السبب فى ذلك هو أن فـساد أخـلاقنا جـعل قليلين يرضـون أن يقولوا كل مـا يعتقـدون . بل ولأن كثيرين يجـهلون هم أنفسهم ما يعـتقدون ، وذلك لأنه لما كان عمل العقل الذى به يعتقد المرء بشئ ما ، مخالفاً لما به يعرف أنه يعتقد ، فكثيراً ما يوجد أحدهما بدون الآخر[1] ، ولم أتخير من بين الآراء الكثيرة المقبولة على سواء ، إلا الأكـثر اعتدالاً . وذلك لأنها دائماً أيسر فى العـمل ، ويرجح أن تكون هى الأحسـن ، إذ أن كل أفراط من دأبه أن يكون سيئاً ، وأيضاً لكى أكـون أقل ميلا عن الطريق القويم عند الوقوع فى الخطأ ، لا كـما لو أختـرت أحد المذاهب المتقـابلة وكان الذى يجب أن أسلكه هـو المذهب الآخـر . واعـتـبـرت على الأخص من بين مذاهب الأفراط كل الأمانى التى ينقص (٢٤) بها المرء شـيئاً من حريته . ولم يكن ذلك لاستنكارى للقوانين التى - لكى تعـالج زعزعـة النفوس الضعـيفـة - تبيح عند حسن الغرض أو مراعـاة لأمن التجـار ، إذ كان

(١) لأن عمل النفس الذى نحكم به أن الشئ خيـر أو شر يتعلق بالإرادة وأن العمل الذى نعرف بـه أننا حكمنا كذلك خـاص بالعقل . وليس غـريباً جـداً أن تكون وظيفـتان أحداهما تتعلق بالعقل والأخرى بالإرادة مـختلفتين . وأن أحداهما تستطيع أن تكون بغير الأخرى، تفسير بيير سلفان رجيس أقتبسه جلسون فى تعليقه ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

الغرض لا سيئاً ولا حسناً أن يتقيد المرء بنذور أو عقود تضطره إلى الثبات على ذلك ، ولكن ذلك لأننى لما لم أشاهد فى العالم شيئاً يبقى على حالة واحدة ، وأنه لما كنت - فيما يختص بنفسى - آمل أن أزيد أحكامى كمالاً ، لا أن أنقصها ، فقد رأيت أننى آتى خطأ فادحاً مخالفاً للعقل ، إذ كان تحبيذى لأمر فى زمن ما يجعلنى مضطراً لأن اعتبره أيضاً طيباً فيما بعد ، عندما قد تزول عنه هذه الصفة ، أو عندما أكف عن اعتباره متصفاً بها .

وكانت حكمتى الثانية أن أكون أكثر ما أستطيع جزماً وتصميماً فى أعمالى ، وألا يكون استمساكى بأشد الاراء عرضة للشك ، إذا ما صحت عزيمتى عليها ، أقل ثباتاً مما لو كانت من أشد الاراء وضوحاً . أحتذى فى هذا مثل المسافرين الذين يجدون أنفسهم قد ضلوا فى بعض الغابات عليهم ألا يضربوا فيها التواء ههنا مرة ، وهنا مرة أخرى . وشر من ذلك أن يقفوا فى مكان واحد . ولكن عليهم أن يسيروا دائماً أكثر ما يستطيعون استقامة نحو جهة واحدة . وألا يغيروا اتجاههم لأسباب ضعيفة . ولو لم يكن إلا مجرد اتفاق . هو الذى جعلهم فى بادئ الأمر يصممون على اختياره . (٢٥) لأنه بتلك الطريقة ، فهم أن لم ينتهوا إلى حيث يرغبون ، فهم يبلغون على الأقل بعض الأماكن التى يرجح أن يكونوا فيها خيراً مما لو ظلوا فى وسط غابة ، وكذلك فإن أعمال الحياة ، لما كانت لا تحتمل غالباً تأجيلاً ما ، فإنها لحقيقة أكيدة جداً ، أنه إذا لم

يكن فى استطاعتنا تمييز أصح الاراء ، فإن الواجب علينا اتباع أكثرها رجحاناً ، بل إذا لم نلاحظ تمايزاً فى الرجحان بينهما ، فإنه يجب علينا مع ذلك . أن نتمسك ببعضها . وألا نعتبرها بعد ذلك موضعاً للشك باعتبارها متصلة بالعمل ، بل علينا أن نعتبرها جد حقيقة ووثيقة ، لأن العقل الذى ألزمنا بها هو نفسه كذلك . وهذا كان كافياً لتخليصى منذ ذلك الحين من كل ندم وتأنيب . وهما يثيران فى العادة وجدان النفوس الضعيفة المتقلبة التى تستسلم فى غير ثبات إلى العمل ما تعتبره صالحاً ؛ ثم تحكم فيما بعد بأنه سيئ .

وكانت حكمتى الثالثة أن أجتهد دائماً فى أن أغالب نفسى لا أن أغالب الحظ ، وأن أغير رغباتى لا أن أغير نظام العالم ، وبالجملة أن أتعود الاعتقاد بأننا لا نقدر إلا على أفكارنا ، قدرة تامة[1] ، بحيث أننا إذا فعلنا خير ما نقدر عليه ، فيما يختص بالأمور الخارجية عنا ، فأن كل ما ينقصنا بعد ذلك من أسباب النجاح ، هو بالنسبة إلينا مستحيل على الأطلاق . وهذا وحده فيما بدا لى ، كان كافياً لأن يصدنى عن الطمع فى المستقبل فى شئ لا أناله ، ولأن يجعلنى راضيا[2] ، لأنه لما كانت

(١) أفكارنا ملك لنا لأنها تتبع تماماً أرادتنا الحرة .

(٢) نرى فى هذه الحكمة الثالثة مظهر التأثير الراوقى ، ولقد كان شائعاً فى القرن السادس عشر . فديكارت رواقى مثل أبطال روايات كورنى Corneille (أنظر بوترو الكتاب المذكور قبلا ١٣ ص ٢٠٠) . والرأى المشهور هو أن ديكارت رواقى فى أخلاقه ولكننا نرى رأى هملان الذى يقول أنه ليس رواقياً كما تذهب إلى ذلك كثرة أهل =

أرادتنا بطبيعـتها لا تميل (٢٦) إلا إلى الأشياء التى يصور لهـا فهمنا أنها ممكنة بحال ما ، فمن المحقق إذن أنه إذا اعتـبرنا كل الخيرات الخارجة عنا تساوى فى تباعد من مثال قدرتنا ، فإننا لا نكون أشد أسفاً على الحرمان من مزايا يبدو لنا أن مـيلادنا أستوجبـها عندما يكون حرماننا منهـا بغير خطأ منا . أكثـر من أسفنا على ألا تكون لنا ممالك الـصين والمكسيك . وكذلك إذا عـملنا بما يدعونه فضيـلة الضرورة . فلن نرغب فى أن نكون أصحاء ، إذا كنا مرضى ، أو فى أن نكون أحراراً ، إذا كنا فى سجن ، أكـثر من رغـبـتنا الآن فى أن تكون لنا أجـسام من مـادة فـيهـا من قلة الاستعداد للفساد مثلـما فى الماس ، أو أن تكون لنا أجنحة نطير بها مثل

---

= الرأى وأنه يختلـف عن الرواقيين فيـما يأتى (١) يقول الرواقـيون بالجبـر المطلق ونفى حرية الإرادة(*) ، بينمـا يثـبت هو الحريـة للإرادة بل أن الإرادة عنده تكاد ترادف الحرية (٢) أن الرواقيين يرون أن المرء يرزح تحت قوى الوجـود وهم يعتبرون كل لذة حسية تراخياً وضـعفاً ، بينما يتفاعل ديكارت بالشهوات ويكثر التـصريح بما فيها من خيـر (٣) أن فلسفة الرواقيين هـى فلسفة استـسلام بينما يدعـو ديكارت فى القسم السادس من المقال إلى فلـسفة تجعلنا سادة الطبيعة وأربابها . (أنظر مذهب ديكارت ٣ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣) .

(*) يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه الأخلاق « . . . ففلاسفة اليونان كان بعضهم يـرى أن الإرادة حرة فى الأخيار كالرواقيين الخ) ص ٦٠ ، ٦١ من الطبعة الثالثة : القاهرة ١٣٤٤ - ١٩٢٥ والذى ينسـبه الأستـاذ للرواقيين . ليس مـن مذهبهم لأنهـم كانوا يقولون بالجـبر المطلق ونفى حرية الإرادة (راجع جانيـه وسياى Janet et Seailles تاريخ الفلـسفة مسألة الحريةُ ص ٢٣٠) .

الطيـور . . ولكنى أعتـرف بأن المرء محـتاج إلى رياضـة طويلة ، وإلى تأملات كثـير تكرارها حتى يتعود على أن ينـظر من هذه الوجهه إلى كل الأمور ، وأنى لأعتقد أن فى ذلك ينحصر سر هؤلاء الفلاسفة[1] . الذين استطاعوا فى زمن سالف أن يخلصوا من سلطان الحظ وأن ينازعوا آلهتهم السعادة[2] . رغم الآلام والفقر . لأنهم باشتغالهم الدائم فى تأمل الحدود التى فرضتها عليهم الطبيعة[3] . اقتنعوا تمام الاقـتناع أنهم لا يقدرون إلا على أفكارهم . وأن اقتناعـهم هذا كان وحده كافيـاً لمنعهم من أن تكون عندهم شهوة لأشـياء أخرى . ولقد كانوا يتصرفـون فى أفكارهم تصرفاً مطلقـاً ، بحيث كـان لهم بذلك حق فى أن يعـتبـروا أنفسـهم أغنى ، وأقـوى ، وأكثـر حرية ، وأسـعد من أى إنـسان آخـر لم تكن له تلك الفلسفة . ومهما حبتـه الطبيعة والحظ بما فى الإمكان فهو لا يتصرف قط ذلك التصرف فى كل ما يريد . (٢٧)

ثم رأيت نتـيجة لهـذا النظام الأخلاقى ؛ أن أخـبر مشـاغل الناس المختلفة فى هذه الحـياة ، كى أجتهـد فى اختيار أفضلهـا وبدون أى رغبة

---

(١) أى الفلاسفة الرواقيون .

(٢) يعرف السـيد الشريف الجـرجانى الفلسفة بأنـها «التشبـه بالاله بحسب الطاقة البشرية لتحصـيل السعادة الأبدية» التعـريفات ص ١١٣ طبعة أستـانبول ١٣٢٧ وهذا مطابق لقول الرواقيين الذين كانوا يرون أن الحكيم سعيد مثل الاله نفسه .

(٣) أي النظام الذى أقامه الـله فى كل شئ فى الوجود (راجع كتاب إلى الأمـيرة اليزابيث ١٨ أغسطس ١٦٤٥ فى م ٤ ص ٢٧٣ من الأعمال الكاملة طبعة آدم وتانرى) .

منى فى أن أقول شيئاً عن مشاغل الآخرين ، فكرت فى أننى لا أقدر على خير من أن أستمر فى نفس ذلك الشغل الذى كنت فيه ، أى على أن أنفق كل حياتى فى تثقيف عقلى ، وفى التقدم على قدر ما أستطيع ، فى معرفة الحقيقة ، تبعاً للمنهج الذى فرضته على نفسى. ولقد شعرت بلذات بالغة جداً ، منذ بدأت فى أن آخذ نفسى بهذا المنهج . لذات لا أعتقد أن من المستطاع أن يجد المرء ماهو أعذب منها ولا أطهر فى هذه الحياة ، وبكشفى كل يوم بواسطته عن حقائق يبدو لى أنها ذات شأن وأن غيرى من الناس مشتركون فى الجهل بها ، كان ما نلته من الرضاء ملء نفسى إلى حد جعل ما بقى من الأشياء لا ينال منى منالاً . وعدا ذلك فإن الحكم الثلاث السابقة لم تكن مؤسسة إلا على مقصدى فى أن أواصل تعليم نفسى : لأن الله بمنحه كلامنا بعض النور لتمييز الحق من الباطل ، لم أكن لأعتقد البتة فى أنه يجب على أن أقتنع بآراء الغير لحظة واحدة ، لو لم أكن قد عزمت على استعمال حكمى الخاص فى اختبارها ، فى الوقت المناسب ، ولم أكن لأعرف أن أتخلص من الهواجس لدى اتباعها ، لو لم آمل ألا أضيع من أجل هذا ، أى (٢٨) فرصة للوصول إلى ماهو أفضل . أن كان هناك ماهو أفضل . ثم أننى ما كنت لأعرف أن أحد رغباتى ؛ أو أن أكون راضياً ، لو لم أتبع طريقاً به ، وأنا أرى أننى واثق من تحصيلى لكل المعارف التى أنا أهل لها ، أرى نفسى كذلك بنفس الوسيلة واثقاً من تحصيلى ماهو فى الحقيقة خير

مما يدخل في طاقتي ، بحيث لا تميل إرادتنا إلى طلب شيء ، أو الفرار منه ، إلا تبعاً لأن فهمنا يمثله لها طيباً أو خبيثاً ويكفى أن يجيد المرء الحكم لكي يجيد العمل ، وأن يحكم أحسن ما يستطيع ، ليسارع إلى عمل أحسن ما يستطيع عملاً ، أى لكي يحصل على كل الفضائل ومعها كل الخيرات الأخرى التى يمكن تحصيلها ، وعندما يتأكد المرء أن ذلك كائن ، فإنه لا يعجزه أن يكون راضياً .

وبعد أن استوثقت كذلك من هذه الحكم ، ووضعتها ناحية مع حقائق الإيمان . التى لها دائماً المنزلة الأولى فى اعتقادى[1] ، حكمت بأن مابقى من آرائى ، هو أن أعمل على التخلص منها ، ولما كنت عظيم الأمل فى أن أستطيع الانتهاء من ذلك بمحاضرة الناس على وجه أحسن ، مما لو ظللت محبوساً في حجرتي التي وافتني فيها كل الأفكار . فقد أخذت فى السفر ولم ينته الشتاء بعد ، وفى السنوات التسع التالية كلها[2] لم أصنع شيئاً إلا الطواف هنا وهناك فى العالم ، مجتهداً أن أكون فيه متفرجاً لا ممثلاً ، فى كل المهازل التي تمثل فيه ، ولما كنت أخص تفكيرى ، في كل شئ بما يمكن أن يجعله موضعاً للشك ، ويكون سبباً

(١) أى جنبها عن الشك المنهجى الذى يقول به فى التفكير النظرى ولكنه يستبعده عندما يكون الأمر فى صدد الدين أو الأخلاق .

(٢) من سنة ١٦١٩ إلى سنة ١٦٢٨ ولقد أفلح مع أنهماكه فى الأسفار كما يقول ، فى تطبيق منهجه على بعض مسائل الطبيعيات والرياضيات (أنظر هملان مذهب ديكارت ٢ ص ٤٧) .

فى خطئنا ، فإننى انتزعت مع ذلك من عقلى كل الأخطاء التى استطاعت أن تتسرب إليه من قبل وما كنتُ فى ذلك مقلداً اللاأدرية[1] الذين لا يشكون (٢٩) إلا لكى يشكوا ، ويتكلفون أن يظلوا دائماً حيارى ، فإنى على عكس ذلك ، كان كل مقصدى لا يرمى إلا إلى اليقين ، وإلى أن أدع الأرض الرخوة والرمل ، لكى أجد الصخر أو الصلصال ، والذى نجحت فيه ، على ما يبدو لى بعض النجاح هو أننى ما اجتهدت فى كشف البطلان أو الشك فى القضايا التى كنت أمتحنها ، لا بفروض ضعيفة ، ولكن بحجج ويقينية ، لم أجد فى شئ منها ما كثر فيه الشك إلى الا استخلص منه نتيجة على حد من اليقين ، ولو لم تكن هذه النتيجة سوى أن القضية لا تحتوى على شئ يقينى . وكما أن المرء وهو يهدم بيتاً قديماً ، يحافظ فى العادة على أنقاضه كى تنفع فى بناء بيت جديد ، كذلك فأننى بنقضى كل ما حكمت عليه من آرائى بأنها آراء ضعيفة الأساس ، فأننى كنت أقوم ببعض الملاحظات وأحصل تجارب

(١) يختلف شك ديكارت المنهجى عن شك اللاأدريين فى أنه لا يدوم بل ينتهى عند الوصول إلى اليقين بينما شك اللاأدريين دائم لا ينتهى قط . (هملان الكتاب المذكور قبلا ٣ ص ١٠٨) ثم أن اللاأدريين يرون استحالة العلم لأنهم يشكون فى كل شئ حتى فى أنهم يشكون ، بينما ديكارت قبل مبادئ قوية لامكان العلم ، وهى ترجع جميعاً إلى التسليم بوجود الله وأنه مصدر الصدق والخير وسيوضح ذلك فى القسم الرابع .

٢) فى الطبيعيات والرياضيات ومن أهمها التحقيق التجريبى لقانون الأنكسار .

كثيرة[٢] ، أفـادتنى بعد ذلك فى تأسـيس آراء أكـثر يقـيناً . وزيادة على ذلك ، واصلت رياضة نفسى على المنهج الذى فـرضته على نفسى ، لأنه عدا أنى عنيت بأن أوجـه كل أفكارى على العمـوم تبعاً لقـواعده ؛ كنت أخصص بين حـين وآخر ، بعض الساعـات أنفقـها على الخـصوص فى تطبـيقـه على بعض مـعـضلات الـرياضيـات ، بل وأيضـاً على بعض المعضلات الأخرى التى كنت أستطيع تحويلها إلى ما يكاد يشبه معضلات الرياضيات ، وذلك بتخليصـها من كل مبادئ العلوم الأخرى ، التى لم أجد فيها متـانة كافية ، كما سترونى أفعل فى كـثير من العلوم المبسوطة فى هذا السفر[١] وكذلك فإنى من غير أن تكون حياتى فى الظاهر مخالفة (٣٠) لحياة من ليس لهم شـغل ، إلا أن يقضوا حياة حـلوة بريئة فأنهم يجتـهدون فى أن يميـزوا بين الملذات والرذائل ، والذين يلجـئون إلى كل الملاهى النزيهة لكى ينعـموا بفراغهم دون ملل ، لم أغفل أن أسـتمر فى مطلبى ، وأن أستفيد فى معرفة الحـقيقة ، فائدة ربما كانت أكثر مما لو لم أفعل شيئاً غير قراءة الكتب أو التردد على أهل الأدب .

وعلى كل حال فقد انقضت تلك السـنوات التـسع قبل أن أستقر على رأى فى المعضلات التى هى فى العادة موضوع نزاع بين العلماء[٢] . وقبل

---

(١) أى فى مبحث أنكـسار الأشعة وعلم الأنواء وهما مـوضوعان عالجـهما ديكارت مع الهندسة وأصدر الثلاثة فى كتاب واحد سنة ١٦٣٧ مع المقال .

(٢) أي علماء العصور الوسطى .

أن أبحث عن قواعد أى فلسفة أكثر يقيناً من الفلسفة الذائعة[1] . وأن تجربة الكثيرين من أهل العقول الفائقة ، الذين التمسوا من قبل مطلبى ، ولم يفلحوا فيه على ما بدا لى ، جعلتنى أتخيل فيه الصعوبة ، بحيث ربما لم أكن لأجرؤ على الشروع فيه بتلك السرعة ، لو لم أر أن البعض قد أذاعوا أننى وصلت بالمطلب إلى غايتى ، ولست أدرى على أى شئ أسسوا هذا القول ، وإذا كان لى أثر فى هذا القول بأقوالى فلابد أن ذلك كان فى اعترافى - بما كنت أجهل - فى سذاجة أصرح مما اعتاده الذين درسوا قليلاً ، وربما كان ذلك أيضاً وأنا أبين أسباب شكى فى كثير من الأشياء التى يعتبرها الآخرون يقينية ولم يكن فى تمدحى بأى علم (فلسفى) ولكنى إذ كنت من الشمم بحيث آبى أن يحسبنى الناس على ما (٣١) لست عليه رأيت وجوب الاجتهاد بكل طريقة فى أن أكون أهلاً لما وهبنى الناس من صيت ، وقد مرت ثمانى سنوات كاملة منذ أن حملتنى تلك الرغبة على أن أبتعد عن كل الأماكن التى أجد فيها بعض من أعرفهم ، وأن أنعزل هنا فى بلد[2] وطد فيه طول استمرار الحرب[3] نظماً (جيدة) . حتى أن الجيوش التى يحتفظ بها فى ذلك البلد تبدو كأنها لا

---

(١) أى فلسفة العصور الوسطى المعتمدة على آراء أرسطو .

(٢) المقصود هولندا .

(٣) بدأت تلك الحروب بالثورة على أسبانيا طلباً للانفصال عنها سنة ١٥٧٢ وانتهت بمؤتمر منستر Munster سنة ١٦٤٨ .

تستخدم إلا فى أن ينعم الناس بثمرات السلام فى كثير من الطمأنينة ، وحيث استطعت فى غمرة شعب كبير جم النشاط ، يعنى بأعماله أكثر من تطلعه إلى أعمال الآخرين ، بدون أن أحرم أى رخاء مما يوجد فى المدن الغاصة بالنازلين ، أن أعيش منفرداً ومنعزلاً كما لو كنت فى أقصى الصحارى .

# القسم الرابع

لست أدرى أن كان يجب على أن أحدثكم عن تأملاتى الأولى هناك[1] ؛ لأنها أدخل فى عالم المجردات[2] وأبعد عن متناول الجمهور بحيث قد لا يسيغها ذوق الناس جميعاً . ومع ذلك ، لكى يستطاع الحكم فيما إذا كانت الأصول[3] التى اعتبرتها هى على قدر من الوثاقة كاف : وجدتنى شبه مضطر إلى أن أتحدث عنها : لاحظت منذ زمان طويل أنه فيما يختص بالأخلاق[4] ، فإن المرء محتاج بعض الأحايين إلى أن يتبع آراء يعرف أنها موضوع للشك ، كما لو كانت لا تحتمل شكاً ، وقد

---

(١) فى هولندا .

(٢) فى النص الفرنساوى Si métaphysiques وقد نقل جلسون عن معجم الأكاديمى الفرنسية (١٦٩٤) أن هذه الكلمة كصفة تفيد أحياناً معنى التجريد . انظر التعليق ٤ ص ٢٨٣) .

(٣) فى النص اللاتينى « أصول فلسفتى» .

(٤) فى الفقرة الثالثة من الجزء الأول من المبادئ ٦ التى عنوانها «فى أنه لا يجب علينا أن نستعمل هذا الشك فى تصريف أعمالنا» يبسط ديكارت قولاً شبيهاً بالذى يورده هنا .

سبق القول فى ذلك[1] ولكن نظراً لرغبتى إذ ذاك فى أن أفرغ للبحث عن الحقيقة ، رأيت أنه يجب على أن أفعل نقيض ذلك ، وأن أنبذ كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقل شك ، على أنه باطل على الأطلاق ، وذلك لأرى أن كان لا (٣٢) يبقى فى اعتقادى بعد ذلك شئ لا يحتمل الشك. وكذلك لما كانت حواسنا تخدعنا أحياناً[2] . أردت أن أفرض أنه ليس من شئ هو فى الواقع كما تجعلنا الحواس نتخيله . ولأن من الناس من يخطئون فى التفكير حتى فى أبسط أمور الهندسة ، ويأتون فيها بالمغالطات[3] . فأننى لما حكمت بأننى كنت عرضة للزلل مثل غيرى ، نبذت فى ضمن الباطلات كل الحجج التى كنت أعتبرها من قبل فى البرهان ، ثم لما رأيت أن نفس الأفكار ، التى تكون لنا فى اليقظة ، قد ترد علينا أيضاً ونحن نيام ، دون أن تكون واحدة منها إذ ذاك حقيقية[4] اعتزمت أن أرى أن كل الأمور التى دخلت إلى عقلى ، لم تكن أقرب إلى الحقيقة من خيالات أحلامى . ولكن سرعان ما لاحظت أنه . بينما

---

(١) فى الحكمة الثانية من الأخلاق المؤقتة فى القسم الثالث من المقال .

(٢) يقول فى التأملات الأولى ١٢ «شاهدت بعض الأحايين أن هذه الحواس تخدعنا ، ومن الحزم ألا نثق البتة تمام الثقة فى الذي يخدعنا مرة واحدة» .

(٣) المغالطة قياس فاسد : أما من حيث مادته ، وأما من حيث صورته .

(٤) الفرق لدى ديكارت بين الحلم واليقظة فى حظهما من الحقيقة «أن الذاكرة لا تستطيع أن تصل الأحلام بعضها مع بعض ومع مجرى حياتنا كما هو شأنها فى وصل الأشياء التى تحصل لنا ونحن فى اليقظة» التأملات السادسة ١٢ .

كنت أريد أن أعتقد أن كل شئ باطل ، فقد كان حتماً بالضرورة أن أكون أنا صاحب هذا التفكير ، شيئاً من الأشياء . ولما انتبهت إلى أن هذه الحقيقة : أنا أفكر ، أذن فأنا موجود[1] . كانت من الثبات والوثاقة

---

(١) أ - معنى التفكير . يقول ديكارت فى التأملات الثانية ١٢ «أننى شئ مفكر Res cogitahs . وماهو هذا الشئ المفكر ؟ أنه شئ يشك ويفهم ويثبت وينفى ويريد ولا يريد ويتخيل أيضاً ويحس» وكذلك يقول فى التأملات الثالثة ١٢ «أننى شئ يفكر ، أى يشك ، ويثبت ، وينفى ويعرف من الأشياء قليلاً ويجهل منها الكثير ، ويحب ، ويكره ، ويريد ولا يريد ، يتخيل أيضاً ويحس» ويقول أيضاً فى ردوده على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف الأول «أعنى بكلمة الفكر Pensée أو Cogitatio كل ماهو فينا بحيث نكون على وعى به مباشرة وهكذا فعمليات الإرادة والفهم والخيال والحس هى أفكار ولكننى أوردت كلمة مباشرة عن قصد كى أبعد كل ما يتبع أفكارنا أو يعتمد عليها فمثلاً ، الحركة الإرادية هى فى الحقيقة فكر باعتبار مبدئها ، ولكنها ليست فكراً بذاتها» ويقول كذلك فى الفقرة التاسعة من الجزء الأول من المبادئ ٦ أعنى بكلمة التفكير Penser ، كل ما يحصل فينا بحيث ندركه مباشرة بأنفسنا ، ولهذا فليس الفهم والإرادة والخيال وحدها ولكن الحس أيضاً كلها تفكير» وبالجملة فالتفكير عند ديكارت معناه أن يكون المرء واعياً على العموم .

ب - القضية من الوجهة المنطقية . زعم جاسندى Gassendi أن أنا أفكر ، أذن فإنا موجود قياس ، وأن ديكارت أضمر مقدمته الكبرى وهى «وكل مفكر موجود» * ، وإذا كان الأمر كذلك فلا يصح أن تكون تلك الحقيقة أنا أفكر أذن فأنا موجود مبدأ أول مادامت تعتمد على صحة المقدمة الكبرى المضمرة . على أن ديكارت أجاب عن ذلك الاعتراض بأن مبدأه ليس قياساً وأنما هو بداهة أو «تبصر بسيط للنفس» ويرجع السبب فى اعتبار ذلك المبدأ قياساً إلى وجود كلمة إذن Ergo أو Donc =

(واليقين) بحيث لا يستطيع اللاأدريون زعزعتها ، بكل ما في فروضهم من شطط بالغ ، حكمت أني أستطيع مطمئناً أن آخذها مبدأ أول للفلسفة التي أتحراها .

ثم لما اختبرت بانتباه ما كنت عليه ، ورأيت أنني قادر على أن أفرض أنه لم يكن لى أى جسم ، وأنه لم يكن هناك أى عالم ، ولا أى حيز أشغله ؛ ولكنني لست بقادر ، من أجل هذا ، على أن أفرض ، أنني لم أكن موجوداً ؛ بل على نقيض ذلك ، فإن نفس كونى أفكر فى الشك فى حقيقة الأشياء الأخرى ، يستتبع استتباعاً جد واضح وجد يقيني أنني كنت موجوداً : فى حين أنه لو كففت عن التفكير وحده ،

= فيه التى تستعمل عادة فى القياس وقد حل أسبينوزا ذلك الاشكال باقتراحه التعبير عن هذا المبدأ بهذه العبارة Ego sum cogitans أى أنا مفكر (راجع هملان الكتاب المذكور قبلا الفصل التاسع وكينوفيشر حياة ديكارت ومذهبه ١٠ ص ٤٠١ وما يليها وجلسون فى تعليقه ٤ ص ٢٩٢ ومابعدها وبرنشفيك المقال المذكور سابقاً ١٧ ص ٣١٥) .

(*) يسمى ذلك النوع من القياس بقياس الضمير وهو بالفرنسية Enthymène «وهو قياس طويت مقدمته الكبرى أما لظهورها والاستغناء عنها كما جرت العادة فى التعاليم كقولك خطأ أ ب ، أ ج خرجا من المركز إلى المحيط فيتتج أنهما متساويان وقد حذفت الكبرى واما لاخفاء كذب الكبرى إذا صرح بها كلية كقول الخطابى هذا الإنسان يخاطب العدو فهو إذا خائن مسلم للثغر ولو قال وكل مخاطب للعدو فهو خائن لشعر بما يناقض به قوله ولم يسلم» ابن سينا النجاة ص ٩١ طبع القاهرة ١٣٣١

وكان كل ما بقى مما فرضته حقاً ، لم يكن (٣٣) لى مسوغ للاعتقاد بأننى كنت موجوداً[1] : ولقد عرفت من ذلك أننى كنت

---

(١) التفرقة بين النفس والبدن . هذه الحجة التى أوردها هنا ديكارت لبيان أستقلال النفس عن البدن ، أى لأثبات أن وجودها غير متوقف على وجوده يراها البعض مستمدة من القديس أوغسطينوس Augustinus وأول من قال بذلك هو الدكتور أرنولد Arnauld فى الاعتراضات الرابعة ١٢ ولكن ديكارت لم يجب عليه فى هذا الشأن بأكثر من شكره على «المعونة التى أمده بها وذل بتأييده بحجة القديس أوغسطينوس» الردود على الاعتراضات الرابعة ١٢ وكذلك أنظر كينوفيشر حياة ديكارت وعلمه ومذهبه ١٠ ص ٢٩٦ ومابعدها وجلسون فى تعليقه ٤ ص ٢٩٥ ومابعدها على أن القائلين بذلك لم يقولوا بأن ديكارت نقل عن القديس أوغسطينوس نقلاً بل لم يزيدوا على ملاحظة بعض وجوه التشابه بين أفكار الفيلسوفين . وقد ظهر هذا التشابه ضئيلاً جداً أمام البعض حتى أهمله ومن هؤلاء همـلان الذى يقول «وجه ديكارت جهده إلى معضلة التفرقة بين النفس والبدن وذلك بتناوله المسألة فى ذاتها واستعان لحلها بحجة لا تختص إلا به Qui n'appartient qu'à lui مذهب ديكارت ٣ ص ٢٥٤ وهو يقصد تلك الحجة التى نعلق عليها الآن لأن لديكارت حجتين غيرها لا يجادل أحد فى أنه أستمدهما من سابقيه (أنظر المقدمة) .

على أننا نعتقد من أن نفس حجة ديكارت التى يقول عنها هملان أنها لا تختص إلا به ، قد أوردها من قبله ابن سينا فى الشفاء فقال «فنقول يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة وخلق كاملاً لكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات وخلق يهوى فى هواء أو خلاء هوياً لا يصدمه فيه قوام الهواء صدماً ما يحوج إلى أن يحس وفرق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته فلا يشك فى أثباته لذاته موجوداً ولا يثبت مع ذلك طرفاً من أعضائه ولا باطناً من أحشائه ولا قلباً =

= ولا دماغاً ولا شيئاً من الأشياء من خارج بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً ولو أنه أمكنه في تلك الحال أن يتخيل بدأ أو عضواً آخر لم يتخيله جزءاً من ذاته ولا شرطاً في ذاته ، وأنت تعلم أن المثبت غير الذى لم يثبت والمقرب غير الذى لم يقرب فإن للذات التي أثبت وجودها خاصية لها على أنها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التي لم يثبت فأذن المثبتة له سبيل إلى ثبته على وجود النفس شيئاً غير الجسم بل غير جسم وأنه عارف به فاستشعر له وإن كان ذاهلاً عنه يحتاج أن يقرح عصاه» ص ٢٨١ ، ٢٨٢ من طبعة طهران . ويعود أيضاً فيقول في نفس الكتاب «ولنعد ما سلف ذكره منا فنقول : لو خلق إنسان دفعة واحدة وخلق متباين الأطراف ولم يبصر أطرافه واتفق إن لم يمسها ولا تماست ولم يسمع صوتاً جهل وجود جميع أعضائه ويعلم وجود أنيته شيئاً مع جهل جميع ذلك وليس المجهول بعينه هو المعلوم وليست هذه الأعضاء لنا في الحقيقة إلا كالثياب . . .» ص ٣٦٣ . ويقول كذلك في كتابه الإشارات والتنبيهات عند الكلام على النفس الأرضية والسماوية «ولو توهمت ذاتك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيئة وفرض أنها على جملة من الوضع والهيئة بحيث لا تبصر أجزاءها ولا تتلامس أعضاؤها بل هي منفرجة ومعلقة لحظة ما في هواء طلق وجدتها قد غفلت عن كل شئ إلا عن ثبوت أنيتها» ص ١١٩ من مطبوعة فورجيه Forget في ليدن سنة ١٨٩٢ وكذلك جاء في لباب الإشارات النمط الثالث في النفس الأرضية والسماوية القسم الأول في البحث عن ماهية جوهر النفس :

* (تنبيه) المشار إليه بقولي أنا ليس بجسم ، لوجهين : الأول أن جميع الأجزاء البدنية في النمو والذبول والمشار إليه بقولي أنا باق في الأحوال كلها والباقي مغاير لغير الباقي . الثاني : أني قد أكون مدركاً للمشار إليه بقولي أنا حال ما أكون غافلاً عن جميع أعضائي الظاهرة والباطنة فأني حال ما أكون مهتم القلب بمهم أقول أنا أفعل كذا وأنا أبصر وأنا أسمع وأنا جزء من هذه القضية =

جوهراً[1] كل ماهيته[2] أو طبيعته ليست إلا أن يفكر ، ولأجل أن يكون موجوداً ، فإنه ليس في حاجة إلى أى مكان ولا يعتمد على أى شئ

= فالمفهوم من أنا حاضر لى فى ذلك الوقت مع أنى فى ذلك الوقت أكون غافلاً عن جميع أعضائى والمشعور به غير ماهو غير مشعور به فأنا مغاير لهذه الأعضاء . وأن شئت أمكنك أن تجعل هذا برهاناً على أن النفس غير متحيزة لأنى قد أكون شاعراً بجسمى أنا حال ما أكون غافلاً عن الجسم فأنا وجب الا يكون جسماً» وقد بين الأستاذ فورلانى Furlani ان النصين الذين اقتبسناهما من الشفاء كانا مترجمين إلى اللاتينية وأن الفيلسوف غليوم أوفرنى Auvergne قد نقلهما عنه مع ذكر اسم ابن سينا . وقال الأستاذ فالوا Valois فى كتابه عن أوفرنى الصادر فى باريس ١٨٨٠ عند الكلام عن الفكرة التى ينقلها هذا الأخير عن ابن سينا «توجد هذه التعبيرات تقريباً فى المقال عن المنهج» (أنظر ابن سينا ومبدأ ديكارت أنا أفكر ، إذن فأنا موجود Avicennae al Cogio, Ergo Sum di Cartesio فى مجلة الأسلاميات Islamica المجلد الثالث الكراسة الألى ص ٥٣ - ٧٢ فى ليبزج أبريل سنة ١٩٢٧) .

(١) يقول ديكارت «عندما نتصور الجوهر ، فأنما نتصور شيئاً موجوداً بحيث لا يحتاج لأجل وجوده إلا إلى نفسه» المبادئ ج ١ الفقرة ٥١ وكذلك يقول : «يسمى جوهراً كل شئ يقوم فيه مباشرة كأنه فى موضوع ، ويوجد بواسطته شئ ما ندركه ، ومعنى ذلك أى خاصية ، سواء صفة أو نعت تحصل لها عندنا فكرة حقيقية» الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف الخامس ، ويميز ديكارت دائماً بين الجوهر المفكر وهو النفس والجوهر المتحيز وهو الجسم على العموم .

(٢) يستعمل ديكارت الماهية أو الطبيعة كمترادفين (أنظر جلسون التعليق ٤ ص ٢٠٥) . ويعنى ديكارت بالماهية Essence «الشئ كما هو فى العقل» نص أقتبسه من الرسائل ليارد فى تعليقه على المبادئ ٦ الجزء الأول ص ٤٠ وهذا ما يطابق لفظة الماهية عند فلاسفة العرب .

مادي . بحيث أن الأنية (النفس[1]) التي أنابها ، هي متمايزة تمام التمايز عن الجسم ، بل وهي أيسر أن تعرف[2] وأيضاً لو لم يكن الجسم موجوداً

(١) في النص الفرنسي وردت كلمة âme أي الروح ولكننا نقلنا هنا عن النص اللاتيني حيث جاءت كلمة Mens أي النفس ولم تأت كلمة Anima وهي ما تقابل في اللاتينية كلمة âme في الفرنسية . ولقد حدد ما يقصده بكلمة النفس في التعريف السادس من الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ فقال : «الجوهر الذي يحل فيه الفكر مباشرة يسمى هنا بالنفس ، وأنا أقول هنا النفس Mens ولا أقول الروح Anima ، لأن الكلمة الأخيرة تدعو للبس ، إذ تطلق غالباً للدلالة على شئ جسمي» . (أنظر جسلون التعليق ٤ ص ٢٠٧ ، ٣٠٨) ويظهر أن هملان أخذ الكلمة Ame كما وردت في المقال وقال أن ديكارت وقع باستعمالها في خلط كبير وكان عليه أن يستعمل كلمة فكر أو معرفة بدلاً من كلمة روح (راجع مذهب ديكارت ٣ ص ١٠٦) . على أننا نعتقد أن خطأ ديكارت لغوي محض وعذره في ذلك حداثة عهد اللغة الفرنسية في أيامه بالعلم ، والدليل على ذلك أنه لم يقع في نفس الخطأ في الترجمة اللاتينية التي راجعها وأقرها كما أن المترجم الفرنسي لكتابه المبادئ ٦ كثيراً ما يستعمل كلمة Ame للدلالة على نفس المعنى المقصود في المقال . كما فعل في الفترة الحادية عشرة من الجزء الأول .

(٢) هذا القول نتيجة منطقية لمبدئه أنا أفكر ، أذن فأنا موجود ولتعريفه النفس بأنها جوهر مفكر فالنفس أذن أسهل معرفة من البدن لأن البدن لا يمكن معرفته إلا بالنفس وأذن فمعرفتها سابقة لمعرفته . هو يقول للتدليل على ذلك في الفقرة الحادية عشرة من ج ١ من المبادئ ٦ «إذا كنت أقتنع أن هناك أرضاً لأني ألمسها أو لأني أبصرها ، فمن ذلك عينه ، وبدليل أقوى بكثير ، يجب على أن أقتنع بأن فكري كائن أو موجود ، حتى ولو جاز عدم وجود أرض ما في العالم وأنه لايمكن أن أنيتي أي نفسي لا تكون شيئاً ما حينما يحصل عندها ذلك الفكر» . أرجع أيضاً إلى التأملات الثانية ١٢ .

البتة لكانت النفس موجودة كُما هي بتمامها[1] .

وبعد ذلك ، بحثت فيـما يلزم للقضية كي تكون حقيقـية ويقينية : لأنني لما كنت وجدت قـضية علمت أنهـا كذلك : فكرت في أنه واجب على أن أعـــرف مم يتكـــون هذا اليـــقين . لاحظت أنه لاشـئ في هذه القضية: **أنا أفكر . إذن فأنا موجود** . يجعلني أثـق من أني أقول الحق . الا كـوني أرى بكثيـر من الجلاء لأجل الـتفكيـر ، فالوجـود واجب فحكمت بأنني أستطيع أن أتخـذ قاعدة عامة ، أن الأشيـاء التي نتصورها تصوراً قوى الوضوح والتميز ، هي جميـعاً حقيقية ؛ غير أن هناك بعض الصعوبة في أن نبين ماهي الأشياء التي نتصورها متمايزة .

وبعد ذلك ، فأنني لما فكرت في شكوكي ، وأن مؤدى هذا أن ذاتي لم تكن تامة الكمال ، لأنـني تبينت أن المعرفة كمـال أكبر من الشك ، رأيت أن أبحث أني تعلمت أن أفكر في شئ أكمل منـي : وعرفت يقيناً

---

(١) يعـتمـد ديكارت في ذلك على المبـدأ الذى أثبـته في مـذهبه وهو أن الأشيـاء التي نتصورها متمـايزة جلية هي حقيقية وعلى ذلك فيفـسر قوله بوجود النفس إذا فرض عـدم وجود الجـسم بما يأتي : (١) اثباته السـابق على أننا عند أغـفال الجـسم نظل مدركين لوجـودنا (أنظر ص ٥٢ ، ٥٣) (٢) مادمنا ندرك الشئ جليـاً متـميزاً فـهو حقيقي لأنه يستحيل على الله أن يخـدعنا . (٣) التوجيد بين الحقيقة في الذهن وفي الأعيان كمـا كان يقول بذلك علماء العصور الوسطى (راجع مـبادئ الفلسفة ٦ ج ١ الفقرة ٦٠ ومابعدها).

أن ذلك يجب أن يكون ذا طبيعة هي في الواقع أكمل[1] . أما ما كان عندي من تفكيرات في أشياء كثيرة (٣٤) أخرى خارجة عني مثل السماء ، والأرض ، والضوء ، والحرارة ، وألف شئ آخر ، فلم أتعب كثيراً في معرفة من أين جاءت ، ذلك لأني إذ لم ألاحظ فيها شيئاً يجعلها في نظري أسمى مرتبة مني ، استطعت أن أعتقد أنها ، إذا كانت حقيقية[2] فأنها من توابع طبيعتي ، من جهة أن طبيعتي لها شئ من الكمال ، وأن هذه الأشياء أن لم تكن كذلك ، فأنني أكون استمددتها من العدم ، أي أنها كانت حاصلة عندي من جهة ما في من نقص . ولكن الأمر لا يمكن أن يكون على هذا النحو فيما يختص بفكرة وجود أكمل من وجودي : لأن استمداد تلك الفكرة من العدم ، أمر جلي الاستحالة ؛ لأن التناقض الواقع في أن الأكمل يكون لاحقاً وتابعاً لما هو أقل كمالاً ليس أقل من التناقض الواقع في أنه يحدث شئ ما من العدم ، إذن فأنا لا أقدر أيضاً على أن استمد هذه الفكرة من نفسي[3] . وعلى

---

(١) هذا نتيجة لمبدأ العلية الذي يقبله ديكارت وهو «لا يكون في المعلول ما ليس في العلة» الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ .

(٢) يعني بقوله حقيقية أن لها وجوداً في الأعيان أي موجودة في الخارج .

(٣) تصبح الفكرة التي يبسطها ديكارت في هذه الصفحة مفهومة وواضحة إذا فطنا إلى مبدئين ديكارتيين أساسيين . الأول : أن ديكارت يبدأ دائماً لا من الشئ في الخارج وإنما يبدأ من نفسه أي بمعرفته للشئ وتفكيره فيه اني أفكر Cogito . والثاني : أن للشئ وجوداً عينياً (أي في الخارج بصرف النظر عن الوجود في الذهن) بقدر ماله =

ذلك بقى أن تكون هذه الفكرة قد ألقيت إلى من طبيعة[1] هى فى الحقيقة أكثر منى كمالاً ، بل ولها من نفسها كل الكمالات . التى أستطيع أن أتصورها ، وإذا أردت التعبير بكلمة واحدة ، عن تلك الطبيعة فإن المراد بها الله ، وأضفت إلى ذلك أنه بما أننى قد عرفت بعض الكلمات التى ليس لى شئ منها ، فأننى لست الكائن الوحيد الذى فى الوجود (وهنا سأستعمل بحرية ان كان يرضيكم هذا كلمات المدرسة)[2] بل يجب بالضرورة أن يكون هناك كائن آخر أكثر كمالاً ، أنا تابع له ، ومن لدنه حصلت على كل ما هو لى[3] ، لأننى لو كنت وحيداً ومستقلاً عن كل ماهو (٣٥) غيرى بحيث كان لى من نفسى كل هذا القليل الذى أشارك[4] الذات الكاملة فيه ، لكنت إذن أستطيع أن أحصل من نفسى للسبب عينه

---

= من الكمال . ويجب وصل هذين المبدأين بقانون العلية الذى يعبر عنه بقوله (ان علة الوجود لأى لاشئ موجود بالفعل أو لأى كمال لشئ موجود بالفعل لا يمكن أن تكون لاشئ أو تكون شيئاً غير موجود) البديهية الثالثة من ردوده على الاعتراضات الثانية ١٢ .

(١) فى النص اللاتينى «بواسطة كائن طبيعته كانت الخ» .

(٢) يقصد بقوله كلمات المدرسة اصطلاحات علماء العصور الوسطى التى لم تكن قد هضمتها اللغة الفرنسية بعد (أنظر جلسون التعليق ٤ ص ٣٣٢) .

(٣) فى النص اللاتينى «كل مكان فى» .

(٤) أى القليل من الكمال الذى ليس ذاتياً للإنسان (أى ليس جزءاً من ماهيته) ولكنه حاصل على جزء منه فهو يشارك الله فى ذلك لأن الله حاصل على كل الكمال .

على كل ماهو فوق ذلك مما أعـرفه ينقصنى[1] ، وبذلك أكون أنـا نفسى غير متناه[2] ، وأزلياً أبدياً[3] ، وغير متغير[4] ، وعالما بكل شئ ، وقادراً على كل شئ وقصارى القـول أن تكون لى كل الكمالات التى أتسطيع أن

---

(١) يريد أن يقول أنه ليس عله لما له من القليل من الكمال .

(٢) يعتبـر ديكارت هذا الاصطلاح موجباً أى أنه ليس سلباً مـتناة بل يقول أن «متناه» هى سلب «غير متناه» وفى ذلك يقول (لا أستعمل البـتة كلمة غير متناة للدلالة فقط على ما ليس له نهاية ، وهذا ما يكون سالباً وقد أطلقت عليه كلمة غير محدد Indéfini، ولكن للدلالة على شئ حقـيقى ، أعظم ، بدون موازنة . من كل الأشـيـاء التى لها نهاية ما ، من كـتاب له إلى بعض أصدقائه مقـتبس فى معجم الفلسفـة ١١ للأستاذ لالاند فى مقالة غير متناة Infini وفى التأملات الثالثة ١٢ يقول أنه لا يستعمل كلمة غير متناة سلباً لكلمة متناه كما يستعمل كلمة السكون لنفى كلمة الحركة والظلام لنفى النور لأنه يوجد فى الجوهر الغير المتناهى من الحقيقة أكثر مما يوجد فى الجوهر المتناهى ولأن فكرة الغير المتنـاهى سابقة عنده لفكرة المتناهى إذ كيف يمكن أن يعـرف أنه غير كامل مـالم يكن قد فكر من قـبل فى ذات أكمل من ذاته عـرف بمقارنتـها عـيوب طبيعته .

(٣) ازلى أى لايقـدر العقل على تصـور بداية له وأبدى أى لا يقـدر على تصور نهـاية له والكلمة الفرنسية éternel تفيد مـعنى الكلمتين أى ليس له مبـدأ فى أوله كالقدم ولا انتهـاء له فى آخره كـالبقاء وهـذه صفة ينفـرد بها الله لأنه لا يفـتقـر فى وجوده إلى موجود آخر فوجوده ليس له ابتداء ولن يكون له انتهاء .

(٤) لأن الحركة والتغير لا يكونان للذات الحاصلة على كل الكمالات .

الحظ أنها لله[1] ، لأنه تبعا للاستدلالات التى أوردتها[2] ، فلكى أعرف طبيعة الله ، على قدر ما تستطيع طبيعتى ، فأنه لم يكن على ألا أن أتأمل فى كل الأشياء التى وجدت لها فى نفسى صورة ذهنية هل فى امتلاكها كمال أم غير كمال وقد أيقنت أن شيئاً مما يفيد النقص منها ليس لله ، ولكن كل ما عدا ذلك ثابت له . وكذلك رأيت أن الشك ، والتقلب ، والحزن ، وما شابهها من الأمور ، لم تكن لتكون فيه ، إذ أننى أنا نفسى كنت أرتاح لأن أكون خالصاً منها . ثم إنه عدا ذلك ، فلقد كانت لى أفكار عن أشياء كثيرة حسية وجسمية ، لأنه مهما فرضت أننى كنت فى حلم ، وأن كل ما شاهدت أو تخيلت كان باطلاً فأننى لا أقدر على كل حال أن أنكر ان هذه الأفكار كانت على الحقيقة فى ذهنى ، ولكن لما كنت عرفت بوضوح كثير فيما مضى فى نفسى أن الطبيعة العاقلة متمايزة عن الجسمية ، وذلك باعتبارى أن كل مركب يدل على تبعية[3] ، وأن التبعية نقص بلا شك ، فأننى حكمت من هذا أنه لم

---

(١) عرف ديكارت الله بقوله «أعنى بالله جوهراً غير متناه ، أزلياً أبدياً ، غير متغير ، مستقلاً ، عالماً بكل شئ ، قادراً على كل شئ ، وهو الذى خلقنى وخلق سائر الأشياء الأخرى (إذا كان يوجد منها حقيقة شئ ما)» .

(٢) أى الخاصة باثبات وجود الله .

(٣) «لأن أجزاء المركب يعتمد بعضها على البعض الآخر وأن الكل نفسه يعتمد على الأجزاء التى تكونه» جلسون التعليق ٤ ص ٣٣٩ .

يكن كمالاً فى الله أن يكون مركباً من هاتين الطبيعتين[1] ، وعلى ذلك فهو لم يكن مركباً ، ولكن إذا كان فى العالم بعض الأجسام ، أو بعض العقول[2] ، أو طبائع أخرى ، لم تكن تامة الكمال ، فإن وجودها كان واجباً أن يعتمد على قدرته ، بحيث (٣٦) أنها جميعاً لم تكن لتقدر على أن تقوم بدونه لحظة واحدة[3] .

---

(١) أى العاقلة والجسمية .

(٢) «أي ملائكة أو إنسان» جلسون فى المكان المذكور .

(٣) يقول ديكارت بنظرية الخلق المستمر فهو يرى أن حفظ الله للكائنات هو خلق وهذا راجع إلى أنه يرى أن لحظات الزمن مستقل بعضها عن البعض الآخر فليس ينتج بالضرورة عن وجودى الآن وجودى في اللحظة التالية مالم يشأ الله ذلك وإذن فالحفظ والخلق عنده شىء واحد . أنظر هملان مذهب ديكارت ص ١٩٣ ، ٣٠٧، وسنعود للكلام عن هذه النظرية فى التعليق على القسم الخاص .

ولقد بسط ديكارت حتى الآن دليلين لأثبات وجود الله فالأول يمكن إيجازه فى القول بأنه استنبط من شكه أنه غير كامل إذ أن المعرفة أولى بالكمال من الشك ولكنه ما كان ليعرف أنه غير كامل لو لم تكن لديه فكرة الكمال وإذا فلابد من سبب لحضور تلك الفكرة فى ذهنه إذ أنه لا يندمج شىء من لا شىء ويجب أن يحتوى هذا السبب على كمال وحقيقة أكثر مما فى المسبب عنه ، وهذا السبب ليس هو نفسه لأنه ليس كاملاً كما أنه ليس العالم الخارجى لأنه لم يثبت بعد حقيقة وجوده ولأنه حادث ولا يستطيع أن يقوم بنفسه . وأذن فهو ليس بكامل وأذن فليس السبب إلا ذاتاً لها كل الكمالات وهذه هى ذات الله . وأما الدليل الثانى وهو متصل بالأول فيتلخص فى القول بأنه عرف أنه موجود وأنه غير كامل ولكنه يمتلك فى ذهنه فكرة الكمال وقد =

أردت بعد ذلك أن أبحث عن حقائق أخرى ، ولما كنت قد أخترت موضوع أصحاب الهندسة ، الذى كنت أتصوره جسماً متصلاً ، أو حيزاً لا يتناهى امتداده فى الطول والعرض والارتفاع أو العمق ، قابلاً للانقسام إلى أجزاء مختلفة ، يمكن أن تتخذ أشكالاً وأحجاماً مختلفة ، وأن تحرك أو تنقل على جميع الوجوه ، لأن أصحاب الهندسة يفرضون ذلك كله فى موضوع علمهم ، فإنى تصفحت بعض ما يستعينون به من أبسط براهينهم إذ لاحظت أن ما يعزوه إليها الناس من أنها جد يقينية . أنما يقوم على أنها تتصور بجلاء، تبعاً للقاعدة التي ذكرتها غير بعيد[1] فأننى لاحظت أيضاً أنه لاشئ فيها البتة يجعلنى على ثقة من وجود موضوعها[2] ، فاننى مثلاً أرى أنه إذا فرضت مثلثاً ، لزم أن تكون زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين ، ولكن ليس فى هذا ما يجعلنى أستيقن

= عرف أيضاً أنه ليس علة وجود نفسه لأنه إذا كان هو العلة لوجود نفسه كان ممكناً أن يكون أكثر كمالاً مما هو لأن الإرادة تنزع دائماً للخير الأعظم فيجب أذن آن تكون العلة لوجوده ذاتاً لها كل الكمالات وهذه هى الله ، والأستاذ فيشر يسمى هذا الدليل الإنسانى Anthropologische Bewers ويراه أساساً للدليلين الآخرين أي الدليل الأول ويسميه بالدليل التجريبى Empirische والدليل الوجودى الذى سيتكلم عنه ديكارت عن قريب ويرى كذلك أنه «هو الدليل الديكارتى الحق لاثبات وجود الله» . انظر حياة ديكارت وعمله ومذهبه ص ٣١٥ ومابعدها .

(١) أى «أن الأشياء التى نتصورها بجلاء وتمايز كثيرين هى جميعاً حقيقية» .

(٢) أى «الجسم المتصل المتحرك الذى هو موضوع البراهين الهندسية» جلسون التعليق ٤ ص ٣٤٧ .

أن فى العالم مثلثاً ، ذلك على حين أننى عندما عدت إلى أمتحان ما عندى من الصورة الذهنية لموجود كامل ، ألفيت أن الوجود كان داخلاً فيها على الوجه الذى يدخل به فى الصورة الذهنية لدائرة أن كل أجزاء محيطها متساوية البعد عن مركزها بل وهو أكثر من هذين وضوحاً ، وينتج عن ذلك أن كون الله ، الذى هو هذا الموجود كامل ، موجوداً هو على الأقل مساو فى اليقين لخير ما يمكن أن يكون برهاناً هندسياً[1] .

---

(١) أطلق كانت على هذا الدليل أسم الدليل الوجودى Ontologische Beweis فأصبح بعد ذلك معروفاً بهذا الأسم (أنظر نقد العقل الخالص Kritik der reinen vernuntf الكلام فى استحالة دليل وجودى على وجود الله ص ٥٩٢ ومابعدها من الطبعة الأولى سنة ١٧٨١ وص ٦٢٠ ومابعدها من الطبعة الثانية سنة ١٧٨٧) وجملة هذا الدليل أن الله كامل أذن فهو موجود لأن الكمال يتضمن الوجود كما يتضمن مفهوم المثلث أن زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين . واعترض جاسندى على ديكارت بأن الوجود ليس كمالاً . وأصل الاختلاف بينه وبين ديكارت أن ديكارت يبدأ كما نعرف من التفكير لاثبات الوجود أنا أفكر Cogito أى أن الوجود الخارجى عنده تابع للماهية أما عند جاسندى فالماهية منتزعة من الوجود العينى ، ويقول ديكارت أنه يستحيل أن نتصور شيئاً له كل الكمالات وليس له وجود إذ أن التناقض ظاهر فى ذلك . (راجع التأملات السادسة ١٢) على أن نقد كانط أقوى من نقد جاسندى فهو يقول «من البين أن الوجود ليس محمولاً حقيقياً ، أى ليس تصوراً لشئ ما يمكن أضافته إلى تصور لشئ Ein Begrift von irgend etwas, was zu dem Begriffe eines Dinges hinzokommen Konne الكتاب المذكور ص ٥٩٨ من الطبعة الأولى ، ٦٢٦ من الطبعة الثانية ويفسر ذلك بأن الوجود هو =

(٣٧) ولكن السبب فى أن الكثيـرين يعتقدون بالصعوبة فـى معرفة ذلك . بل فى معرفـة ماهى نفسهم أيضاً ، هو أنهم لا يرفعـون عقولهم قط إلى مافوق الأشـياء المحسوسة ، وأنهـم تعودوا ألا يعتبروا شـيئاً من

---

= مجرد الرابطة فى الحكم أى ما يربط للمحمـول بالموضوع فقولك الله هو قادر على كل شئ قضية تشتمل على تصـورين الأول الله والثانى قادر على كل شئ أما كلمة هو (وفى اللغات الأوربية يستعـمل فعل الكينونة فهو فى هذا المثال ist أي يكون ولما لم يكن فى العربية هذا الاستعـمال قلنا هو للدلالة على الحكم بدلاً من الفعل يكون ist ) فليست محـمولاً وانما هى تقيم العلاقة بين المحـمول والموضوع . وعلى ذلك فهـو يقول . أن القائلين باثبات وجـود الله ، اعتمـاداً على تصورنا له ، هـم بين أن يقـعوا فى التناقض المنطقى أو الدور ، ذلك بأن تصـور الله . الذى هـو موضـوع القضية ، أن كل متضمناً للوجود ، فالاستدلال به على الوجود استدلال على الشئ بنفسه وهو الدور ، وإن كان تصور الله خلوا من الوجود ، فالوجد إذن فى المحمول فيكون أحد طرفى القضية المتساوية الطرفين متضمناً للوجود والطرف الآخر خلوا منه والحكم على هذا النحو تناقض فى المنطق .

ولكن هذا النقد انما يتوجه به على غـير ديكارت (لان الدليل الوجودى كان مـعروفاً قبل ديكارت) لأن موضع هذا البـرهان من مذهب ديكارت يحميه لأن مـبدأ تحقق الاشياء عند ديكارت هو فى العـقل ، ولا معرفة يقينيـة عنده إلا ما ذهـب من العقل إلى الحس . ثم أن الوجود يصح أن يكون مـحمولاً لأنه ليس مـستمداً من التـجربة والحواس بل هو مستمد من العقل ، وهو يرى أنه «حينما نقول أن لازماً تحتوى عليه طبيعة أى شئ أو تصوره ، فهذا كما لو نقول أنه حقيقى لذلك الشئ أو ممكن اثباته له» الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف التاسع .

ودفع تهمة وقوعه فى الدور بقوله «. . . أننى لم أقع فى الخطأ الذى يسميه المناطقة =

الأشياء إلا إذا تخيلوه[1] وهذه طريقة فى التفكير خاصة بالأشياء المادية ، حتى إن كل مالا يمكن تخيله يبدو لهم غير قابل لأن يفهم. وهذا بين من أن الفلاسفة[2] أنفسهم يتخذون شعاراً لهم فى المدارس أنه لاشئ فى العقل لم يكن أولاً فى الحس[3] ومع ذلك فأنه ليقينى أن الصورتين الذهنيتين لله والنفس (الناطقة) لم تكونا قط فى الحس. ويبدو لى أن الذين يريدون أن يستعينوا على فهمها بخيالهم، يفعلون كما لو أنهم أرادوا الاستعانة بعيونهم على سماع الأصوات، أو شم الروائح إلا أن هناك هذا

---

= بالمصادرة على المطلوب ، فإن اعتبار الوجود من لوازم ماهية الله لا يزيد على اعتبار مساواة زوايا المثلث الثلاث مساوية لقائمتين» . من كتاب له أقتبسه هملان فى مذهب ديكارت ص ٢١٣ . راجع للدفاع عن ديكارت ضد كانط وجاسندى هملان الكتاب المذكور ص ٢١٢ ومابعدها وجلسون التعليق ٤ ص ٣٤٧ مابعدها وبرنشفيك الرياضة ومابعد الطبيعة عند ديكارت ١٨ ، ٣٠٨ ومابعدها .

(١) أنظر التعليق على كلمة الخيال فى القسم الخامس .

(٢) يقصد فلاسفة العصور الوسطى .

(٣) اشارة إلى الكلمة المشهورة فى العصور الوسطى «لاشئ فى العقل لم يكن أولاً فى الحس Nihil est in intellectu quod prius non fuerit in sensu وكان هذا المذهب معروفاً عند العرب ومن أنصاره أبو حامد الغزالى الذى يعبر عنه بقوله «لا يحل فى العقل إلا ما يحل فى الحس» تهافت الفلسفة طبعة القاهرة ١٣٢١ ص ٧٨ ويقول الأستاذ فورلانى Furlani ان هذه الكلمة انتقلت إلى أوروبا عن طريق العرب. أنظر مقالته المذكورة سابقاً ابن سينا ومبدأ ديكارت أنا أفكر إذن فأنا موجود فى مجلة Islamica المجلد الثالث الكراسة الأولى ص ٦٨ .

الاختلاف. وهو أن حاسة البصر لا تؤكد لنا تحقق الأمور التى يختصر بادراكها ، أقل مما تفعل حواس الشم والسمع فى حين أنه لا يستطيع خيالنا ولا حواسنا أن تجعلنا نتأكد من شىء ، إذا لم يتوسط عقلنا فى ذلك .

وأخيراً ، إذا كان هناك بعض من الناس من لم يقتنعوا اقتناعاً كافياً بوجود الله ووجود أنفسهم ، فالحجج التى أوردتها ، فانى أريد أن يعرفوا أن كل الأشياء الأخرى التى يرون أنهم أكثر وثوقاً بها ، وذلك مثل أن يكون للمرء جسم ، وأن توجد الكواكب والأرض ، وماشابهها من الأمور ، هى أقل ثبوتاً ، لأنه مع أن للمرء (- كما يقول الفلاسفة -) ثقة أخلاقية[1] بهذه الأشياء ، التى يبدو معها أن المرء لا يقدر على الشك فيها إلا إذا كان مسرفاً (٣٨) . ومع ذلك أيضاً ، فعندما يكون المرء بصدد يقين ميتافيزيقى[2] ، فإنه لا يقدر ، إلا إذا كان محروماً من

---

(١) يفسر ديكارت ذلك بقوله «... سوف أميز هنا بين نوعين من اليقين الأول يسمى أخلاقياً ، أى كافياً لتدبير شئوننا الخلقية ، أو هو مثل يقيننا بالأشياء التى تمس السلوك فى الحياة التى لم نعتد قط أن نشك فيها ، مع أننا نعرف أنه قد يجوز أن تكون باطلة على الأطلاق . وهكذا فإن الذين لم يذهبوا البتة إلى رومة لايشكون فى أنها مدينة فى إيطاليا ، مع أنه يجوز أن كل الذين عرفوهم بها ربما خدعوهم . وأما اليقين الثانى فهو عندما نرى أنه يستحيل أن يكون الشئ غير ما نحكم به» من مبادئ الفلسفة اقتبسه جلسون فى تعليقه ٤ ص ٣٥٨ .

(٢) هذا هو النوع الثانى من اليقين الذى تكلم عنه فى النص الذى اقتبسناه من مبادئ الفلسفة .

العقل ، على انكار أنه يكفى علة لنفى كمال اليقين ، أن يلاحظ أنه من المستطاع على هذا الوجه أن يتخيل النائم ، أن له جسماً آخر ، وأنه يبصر كواكب أخرى ، وأرضاً أخرى ، دون أن يكون من ذلك شئ . لأنه من أين للمرء أن يعرف أن الفكر التى ترد إليه فى الحلم هى أقرب إلى البطلان من الفكر الأخرى ، مع أنها فى أكثر الأحايين ليست أقل قوة ووضوحاً ، ومع أن خيرة العقلاء يبحثون فيها ما شاءوا ثم لا يستطيعون - فيما أعتقد - أن يقيموا حجة واحدة كافية لنزع هذا الشك ، ما لم يفرضوا قبلا وجود الله . أولاً : لأن هذا الذى قررته ، هو الذى اتخذته غير بعيد قاعدة ، أي أن الأشياء التى نتصورها جد واضحة وجد متمايزة هى جميعاً حقيقة ؛ هذا الذى جعلته أولاً قاعدة ليس ثابتاً إلا لأن الله كائن أو موجود وأنه ذات كاملة ؛ وأن كل مافينا يصدر عنه[1] .

ويتبع ذلك أن صورنا الذهنية ومعارفنا لما كانت موجودات خارجية[2]

---

(١) هذا ما يسمى بالسند الالهى لصحة الحقائق التى نتصورها بتمايز وجلاء فان الله لما كان له كل الكمالات يستحيل عليه أن يخدعنا (أنظر المقدمة) .

(٢) ترجمنا فى هذا القسم كلمة idée بكلمة صورة ذهنية لتميز معناها عند ديكارت عن معنى كلمة صورة لأن الصورة من ادراكات الخيال وهى ما لابد لوجوده من مادة أو جسم بينما يقصد ديكارت بالصورة الذهنية ما يتضح من قوله «أعني بكلمة الصورة الذهنية مثال الشئ الذى بحضوره في نفس المدرك يعرف الشئ ، بحيث لا أستطيع أن أعبر عن أمر من الأمور بألفاظ ، عندما أفهم ما أقول ، إلا كنت بنفس التعبير مثبتاً أن الأمر الذى تعبر عن الألفاظ متمثل فى نفسى . وهكذا فأنا لا ادعو =

صادرة عن الله فـهى بما هى به واضحـة متمـايزة ، لا يمكن أن تكون إلا حقـيقة بحـيث أنه ، إذا كان كثـيراً ما يكون فى تلك الصـور الذهنية أو المعارف ما يحتـوى على بطلان ، فذلك لا يمكن أن يكون إلا فى ما كان منها محتوياً على شئ ذى غمـوض وابهام . فأنها فى هذا تشارك العدم . أعنى أنها ليست فـينا بهذه المثالية من الغموض إلا لأن كـمالنا ليس تاماً من كل وجـه . وظاهر أن التناقض فى أن البطلان أو النقص يصـدر عن الله . بهذا الاعتبار ليس أقل (٣٩) من التناقض فى أن الحقيقة أو الكمال يصـدر عن العـدم . ولكن إذا لـم نعـرف أن كل مـا فـينا من واقـعى وحقيقى. يأتى من ذات كاملة وغير متناهية ، فمهما كانت صورنا الذهنية من الوضوح والتمـايز ، فلن يكون لنا أى دليل يجعلنا نستـيقن أنه كان

---

= الصور الحسية المنقوشة فى الخيال باسم الصور الذهنية ، بل بالعكس فأنا لا أدعوها قط بهذا الاسم مادامت فى الخيال أى مادامت منطبعة فى بعض أجزاء المخ ، ولكننى أدعوها بذلك حـينما تحـصل علماً للجـانب العقلى الذى يعنى بهـذا الجزء من المخ «الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف الثانى .

ومما يجب الانتباه إليه أن للصورة الذهنية عند ديكارت وجوداً حقيقـياً ويسميها أحياناً موجودات ذهنية res cogitata . والصورة الذهنية حقيقية الوجود من وجهين الأول باعتبـارها كيفية للجوهـر المفكر ، والثانى لأنها مثال لحـقيقة خارجيـة (أنظر التعريف الثالث الردود على الاعتراضات الثـانية ١٢ وانظر جلسون فى التعليق ٤ ص ٣١٨ - ٣٢١) .

لها كمال كونها حقيقية[1] .

ولكن بعد أن جعلتنا معرفة الله والنفس على ثقة من تلك القاعدة[2] . فمن السهل أن نعرف أن الأحلام التى نتخيلها أثناء النوم . لا ينبغى فى شئ أن تجعلنا نشك فى صحة الفكر التى تحصل لنا ونحن فى اليقظة . لأنه إذا حدث ، حتى أثناء النوم . أن وردت على المرء صورة ذهنية متمايزة جداً ، كان يهتدى أحد أصحاب علم الهندسة إلى برهان جديد ، فلا يمنع نومه أن يكون برهانه صحيحاً ، أما فيما يختص بالخطأ الأكثر وقوعاً في أحلامنا ، وهو ينحصر فى أن الأحلام تصور لنا أموراً مختلفة كما تفعل حواسنا الظاهرة ، فليس مهماً أن يكون ذلك الخطأ سبباً فى الارتياب فى صحة مثل هذه الصور[3] (التى نتلقاها أو نستطيع تلقيها من الحواس) ، وذلك لأنها تقدر أيضاً على خداعنا فى أحايين كثيرة ، دون أن نكون فى النوم : ومثال ذلك أن الذين يصابون بمرض اليرقان ، يبصرون كل شئ أصفر اللون ، وكذلك فإن الكواكب والأجرام الأخرى النائية جداً تظهر لنا أصغر بكثير مما هى . ثم أنه سواء كنا فى يقظة أو كنا فى نوم لا يلزمنا أن نقتنع بأمر ما إلا بيقين عقلنا . ويجدر بالملاحظة

(١) يعتمد فى ذلك على القول بأن الحقيقة تنحصر فى الوجود والبطلان ينحصر فى عدم الوجود ، واذن فإذا كانت هناك فكرة باطلة فذلك لأنها غير موجودة .

(٢) أى «أن كل ما نتصوره بوضوح وتميز هو حقيقى» .

(٣) فى النص الفرنسى كلمة idées ونرى أنها تترجم هنا بالصور لأنه يتحدث عن الحواس كما أنه حددها بالجملة التى وردت فى النص اللاتينى زائدة على النص الفرنسى .

أنني أقول عقلنا ولا (٤٠) أقول قط خيالنا أو حواسنا[1] . وكذلك فمع أننا نرى الشمس واضحة جداً . فإنه لا يلزمنا من أجل هذا أن تحكم بأنها ليست من الحجم إلا كما نراها . ونحن نستطيع أن نتخيل في تمايز رأس أسد مركباً على جسم عنز دون أن يلزمنا أن نستنتج من هذا ، أن في العالم هذا الحيوان الخرافى : لأن العقل لا يملى علينا أن ما نراه أو نتخيله كذلك هو حقيقى . ولكنه يملى علينا أن كل ما يحصل عندنا من صور ذهنية ومعارف يجب أن يكون لها أساس من الحقيقة . لأن الله الذى هو تام فى كماله وفى ثبوته لم يكن ليضعها فينا لولا ذلك . ولأن استدلالاتنا أثناء النوم لا تكون قط من اليقين والكمال بمثل حالتها فى اليقظة . وان كانت خيالاتنا تكون أحياناً اذ ذاك فى نفس القوة والوضوح ، أو أشد فإن العقل يملى علينا أيضاً أن فكرنا لما لم يكن ممكناً أن تكون جميعاً حقيقية ، لأننا لسنا على كمال مطلق ، فإن ما فيها من حقيقة أولى أن يكون حتماً فى الفكر التى تحصل عندنا . ونحن فى اليقظة لا فى أحلامنا .

(١) أنظر التعليق على كلمة الخيال فى القسم الخامس .

# القسم الخامس

قـد أرتاح لأن أستـمر هنا فى تبـيين سلسلة الحـقائق الأخـرى التى استنبطتـها من هذه الأولى . ولكن لما كان تحـقيق هذا الغرض ، يحـتاج إلى أن أتكلم الآن فى مسـائل كثيـزة هى موضع اختـلاف بين العلماء[1] الذين لا أريد أن أحشر نفسى فى جمعهم ، فأنى أعتقد أن الأفضل أآكف عن ذلك الكلام، وأن أقـتـصـر على القـول على العـمـوم مـا هى تلك الحقـائق. كى أفسح المجال لمن هم أكثـر حكمة حتى يقـرروا إن كان من المفيد أن يعرف عنهـا الجمهور[2] شيئـاً (٤١) أكثر تفصيـلاً ظللت دائماً مصمماً على العزم الذى اعتزمـته ، ألا أفرض مبدءاً آخر غير الذى أخذت به غير بعيد فى الاستدلال علي وجود الله والنفس ، وألا أقبل شيئاً على أنه حق ، ما لم يظهر لـى أنه أكثر وضوحاً وتوكـداً من براهين أصحاب

---

(١) يقصد بالعلماء علماء العصور الوسطـى . أما المسائل التى لا يريد أن يحشر نفسه فى زمرة العلمـاء الذين يتجادلون فيـها فهى تختص بالطـبيعة وخـصوصاً مسألـة حركة الأرض (راجع هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٢٦) .

(٢) فى النص اللاتينى «جمهور المتأدبين» .

الهندسة من قبل . وعلى كل حال فأننى أجرؤ على القول ، بأنه ليس الذى وجدته هو مجرد سبيل يسد حاجتى فى قليل من الزمن ، فى كل أصول المعضلات التى تعالج عادة فى الفلسفة[1] ، ولكننى لاحظت أيضاً بعض القوانين ، التى أقامها الله فى الطبيعة ، والتى طبع فى نفوسنا معارفها[2] ، بحيث أنه بعد التفكير فيها تفكيراً كافياً ، لا نقدر على الشك فى أنها روعيت بدقة فى كل ماهو موجود ، أو كل ما يحدث فى العالم . وبعد ذلك فبالتفكير فى تسلسل تلك القوانين بدا لى أننى استكشفت حقائق كثيرة أنفع وأهم من كل ما تعلمته من قبل ، بل ومن كل ما أملت أن أتعلمه .

ولما كنت قد اجتهدت فى شرح أصول تلك الحقائق فى رسالة منعتنى بعض الاعتبارات عن إذاعتها[3] ، فأننى لا اقدر على التعريف بها أكثر من أن أذكر هنا بإيجاز ما تحويه هذه الرسالة . وكان غرضى أن أضمنها كل ما كنت أرى أننى أعرفه قبل كتابتها . مما يتصل بطبيعة الأشياء المادية . ولكن كما أن المصورين لما كانوا لا يقدرون على أن يمثلوا بالتساوى على لوح ذى سطح واحد كل الوجوه المختلفة لجسم صلب ،

---

(١) اى فى الطبيعيات المعروفة فى العصور الوسطى جلسون التعليق ٤ ص ٣٧٢ .

(٢) اى أنها موجودة فى نفوسنا بدون كسب أو تحصيل .

(٣) يقصد كتابه العالم الذى سيتحدث عنه كثيراً فى هذا الفصل وكان قد بدأ الكتابة فيه فى أواخر عام ١٦٢٩ (أنظر كتابه إلى مرسن Mersenne فى ١٨ ديسمبر سنة ١٦٢٩ فى الأعمال الكاملة ج ١ ص ٨٤) .

فأنهم يختارون أحد الوجوه الرئيسية يضعونه وحده نحو الضوء . ويظللون الوجوه الأخرى (٤٢) بحيث لا تظهر إلا على مقدار ما يمكن رؤيتها عند النظر إلى هذا الوجه ، كذلك لما كنت أخشى ألا أقدر على أن أضع فى مقالتى[١] كل ما فى ذهنى ، فأننى عملت على أن أعرض فى هذه الرسالة عرضاً جد مفصل ما كنت أتصوره من معنى الضوء ، ثم أزيد بهذه المناسبة شيئاً عن الشمس ، وعن الكواكب الثابتة ، لأن الضوء كله يكاد يصدر عنها ، وعن السموات لأنها هى التى تنقله ، وعن السيارات وذوات الأذناب وعن الأرض ، لأنها هى التى تعمل فى أنعكاسه ، وخصوصاً عن كل الأجرام التى فوق الأرض ، لأنها أما ملونة ، أو مشفة ، أو مضيئة ، وأنتهى بالإنسان لأنه الناظر إلى كل تلك الأشياء . بل ، ولكى أظلل كل هذه الأشياء قليلاً ، ولكى أستطيع فى حرية أن أقول حكمى فيها دون أن أكون مرغماً على اتباع الآراء المتداولة بين العلماء[٢] أو نقضها ، فأننى اعتزمت أن أترك كل هذا العالم ، لمجادلات هؤلاء العلماء ، وألا أتحدث إلا عما يحصل فى عالم جديد . لو أن الله خلق الآن فى جهة ما ، فى الأمكنة الخيالية ، مادة كافية لتكوينه ، ولو أنه حرك حركة مختلفة ، على غير نظام الأجزاء المختلفة لهذه المادة ، بحيث أنه يكون منها خليطاً[٣] هو من الاضطراب

(١) يقصد أيضاً كتابه العالم .

(٢) أى فلاسفة العصور الوسطى وعلماء اللاهوت فيها .

(٣) الكلمة الفرنسية هى Chaos والمقصود بها المادة التى لا صورة لها .

كما يستطيع أن يتوهم الشعراء ، ولا يفعل بعد ذلك شيئاً إلا أن يعير الطبيعة مدده العادى[1] ، وأن يدعها تعمل تبعاً للقوانين التى أقامها . وكذلك ، فأنى أولاً ، وصفت هذه المادة واجتهدت أن أمثلها على وجه ألا يكون شئ فى العالم فيما أرى أكثر منها وضوحاً ولا قبولاً للفهم منه ، حاشا الذى ذكر آنفاً عن الله وعن النفس . ذلك بأننى فرضت أيضاً عن قصد (٤٣) أنه ليس فى هذه المادة شئ من هذه الصور أو الصفات التى يتجادلون فيها فى مدارس العصور الوسطى ، وليس فيها على العموم شئ ليست معرفته طبيعية بالنسبة لعقولنا ، إلى حد أنه لا يستطاع حتى أدعاء الجهل بها ، وفضلاً عن ذلك ، بينت قوانين الطبيعة ، وبدون أن أؤسس استدلالاتىَ إلا على مبدأ كمالات الله غير المتناهية ، فأننى حاولت أن أثبت بالبرهان كل القوانين التى أمكن أن يشك فيها بعض الشك ، وأن أبين أنها بحيث لو أن الله خلق عوالم كثيرة ، فلا يكون فيها واحد لا تراعى فيه تلك القوانين . وبعد ذلك . بينت كيف أن أكبر جزء من مادة هذا الخليط ، كان ينبغى تبعاً لتلك القوانين أن ينتظم ويترتب على هيئة معينة تجعله مشابهاً لسماواتنا ، وبينت أيضاً كيف أن بعض أجزائه كان ينبغى مع ذلك أن يؤلف أرضاً .

---

(١) «معنى هذا فى لغة علم أصول الدين فى العصور الوسطى ، العمل الذى لا يفعل به الله غير حفظه للعالم بقوانينه ، حفظاً مستقلاً عن التدخلات الخارقة للعادة التى يغير بها المجرى العادى للطبيعة» جلسون التعليق ٤ ص ٣٨٤ .

وأن البـعض الآخر كـان ينبـغى أن يؤلف سـيارات وكـواكب من ذوات الأذناب ، والبـعض الآخر شـمسـاً وكواكـب ثابتة . وهنا توسـعت فى موضوع الضوء ، ففسرت باطناب كـثير ماهو ذلك الضوء الذى ينبغى أن يوجـد فى الشمس وفى الكواكب ، وكـيف إذا بدأ من هناك يخـترق فى لحظة واحدة[1] مـا للسمـوات من أمكنة شـاسعـة ، وكـيف ينعكس من السيارات وذوات الأذناب على الأرض . وزدت على ذلك أشيـاء كثيرة ، تختص بالجوهر ، وبالأين[2] وبالحركات ، وبكل الصفـات المختلفة لهذه السمـوات وهذه الكواكب . بحيث رأيت أن فيمـا ذكرته كفاية للتـعريف بأنه لا يشاهد فى سماوات هذا العالم وكواكبه شئ لا يلزمه ، أو لا يمكنه على الأقل أن يظهـر مشابهـاً كل المشابهـة (٤٤) لسماوات الـعالم الذى وصفـته وكواكبـه ، ثم انتقلت من ذلك إلى قول مـفصل عن الأرض : كيـف أن كل أجزاء الأرض مع أننى فـرضت فرضـاً صريحـاً أن الله لم يضع أى ثقل[3] فى المادة التى تتـركب منهـا ، تميل نحو المركـز ميـلاً متـعادلاً ، وكيف أنه لما كـانت المياه والهـواء فوق سطحهـا ، فإن وضع السماوات والكواكب ، لاسيما وضع القـمر ، كان ينبغى أن يسبب على سطح الأرض مداً وجـزراً شبـيهين فى كل أحـوالهما بالمد والجـزر اللذين

(١) هنا يغفل ديكارت أن أنتقال الضوء هو حركة تسـتغرق من الزمان بحسب المسافة التى يقطعها من المصدر إلى نقطة الوصول .

(٢) أى حلول الجسم فى المكان .

(٣) يقصد أى جاذبية (أنظر جلسون التعليق ٤ ص ٣٨٨)

يلاحظان في بحارنا ، وعـدا ذلك فأنه يسبب مجرى مـعيناً من الماء ومن الهواء من الشـرق إلى الغرب على حد مـا يلاحظ بين المداريين ، وكيف استطاعت الجبال والبحار ، وعيون الماء والأنهار أن تتكون فيها بالطبيعة ، وأن تحصل فـيها المعادن داخل المناجم ، وأن تنمـو النباتات فى المزارع ، وأن تتولد فيها على العموم كل الأجسام التى نسميها مخلوطة أو مركبة ، ومن بين أشياء أخرى ، لما كنت لا أعرف بعـد الكواكب شيئاً فى العالم ينتج الضـوء إلا النار ، اجتهـدت أن أوضح تمام الوضوح كل مـا يتصل بطبيـعتهـا ، وكيف تحدث وكـيف تتغذى ، وكـيف لا يكون لها بعض الأحايين إلا حـرارة بدون ضوء ، وفى أحـايين أخرى لا يكـون لها إلا ضوء بدون حرارة ، وكـيف تقدر على أن تحدث ألواناً مختلفـة فى أجسام متباينة ، وتحدث صفات أخرى مختلفة ، وكيف تصهر بعض الأجسام ، وتجعل الأخرى صلبة . وكيف تكاد تستهلك جـميعها أو تحيلها إلى رماد ودخـان ، وأخـيـراً كيف تكون من هذا الرمـاد زجاجـاً بمجرد تأثيـرها القـوى . لأنه لما ظهـرت لى أن احـالة الرماد إلـى زجاج تسـتـحق من الاعجاب فوق ما تستحقه استحالة أخرى تحدث فى الطبيعة ، فقد كان لى ارتياح خاص إلى وصفها .

ومع ذلك فـإنى لم أرد أن أستنـبط من كل هذه الأشيـاء ، أن هذا العالم قد خلـق على الوجه الذى فرضته ، فـإن الأرجح أن يكون الله قد صنعه منذ المبـدأ على ما ينبغى أن يكون ولكنه من اليـقينى ، وهذا رأى

متداول بين علماء الدين على العموم ، أن العمل الذى يحفظه به الآن هو نفس العمل الذى صنعه به[1] ، بحيث أنه لو لم يصوره فى المبدأ بغير صورة الخليط ، مادام أنه حين أقام قوانين الطبيعة . أولاها مدده لتعمل على مقتضى عادتها ، فإن المرء يستطيع أن يعتقد . دون جحود بمعجزة الخلق[2] أنه بذلك فقط تستطيع كل الأشياء التى هى مادية محضة مع الزمن أن تصير إلى ما نراها عليه الآن . وتصور طبيعتها ، حينما يشاهد تولدها شيئاً فشيئاً على هذا الوجه ، أيسر كثيراً من ألا تعتبر إلا وهى كاملة الصنع .

---

(١) هذا ما يسمى بنظرية الخلق المستمر ونحن نورد هنا ما يقوله فى الفقرة الواحدة والعشرين من الجزء الأول من المبادئ ٦ ليتبين كيف يبرهن ديكارت على هذه النظرية . . قال فى الكلام على أن مدة حياتنا تكفى وحدها لأثبات أن الله موجود «أنا لا أعتقد أنه يمكن للمرء أن يشك فى صحة هذا البرهان ، إذا أنتبه إلى طبيعة الزمان أو إلى طبيعة مدة حياتنا ، لأنها بحيث أن أجزاءها لا يعتمد بعضها على البعض الآخر ولا توجدها قط ، ولا يلزم من أننا موجودون الآن أن نكون موجودين فى لحظة تالية، إذا لم تستمر بعض العلل ، أى نفس العلة التى أحدثتنا ، فى أحداثنا ، أى إذا لم تستمر فى حفظنا . ونحن نعرف بسهولة أنه ليس فينا قط قوة نستطيع أن نقوم بها أو نحافظ بها على البقاء لحظة واحدة . . .» انظر أيضاً قوله فى ص ٦٣ والتعليقة رقم ٢ فى نفس الصفحة .

(٢) «يعتبر الخلق معجزة باعتباره يحدث من العدم وجوداً ، فهو أذن يفوق قوى كل مخلوق . وأذن فهو عمل يختص به الله» جلسون التعليق ٤ ص ٢٩٢ .

وانتقلت ، من وصف الأجسام غير الحية والنباتات ، إلى وصف الحيوانات وخصوصاً إلى وصف الإنسان ولكن لما لم أكن حصلت علماً عن الإنسان كافياً للكلام عنه بنفس الأسلوب الذى تكلمت به عن غيره ، أى أن أثبت المعلولات بالعلل ، وأن أبين من أى العناصر ، وعلى أى هيئة ، وجب أن تحدثها الطبيعة فأننى قنعت بأن أفرض أن الله خلق جسم إنسان مشابهاً كل المشابهة (٤٦) لجسم من أجسامنا سواء كان فى السحنة الخارجية لجوارحه أو فى التناسق الداخلى لأعضائه ، وبدون أن يركبه من مادة غير التى وصفتها . وبدون أن يضع فيه . فى المبدأ . أى نفس ناطقة ولا أى شئ آخر يكون فيه نفساً نباتية[1] أو حاسة ، إلا إذا

(١) «هى مبدأ استبقاء الشخص بالغذاء وتنميته به واستبقاء النوع بتوليد مثل الشخص ولتلك النفس قوة غاذية من شأنها أن تحيل جسماً شبيهاً بجسم ماهى فيه بالقوة إلى أن تكون شبيهة بالفعل لرد بدل ما يتحلل ، وقوة نامية وهى التى من شأنها أن تستحمل الغذاء فى أقطار المتغذى تزيدها عرضاً وعمقاً وطولاً إلى أن تبلغ به تمام النشوء على نسبة طبيعية ، وقوة مولدة تولد جزءاً من الجسم الذى هى فيه يصلح أن يتكون عنه جسم آخر بالعدد مثله بالنوع» ابن سينا فى ذوات الأشياء الثابتة والأشياء غير الثابتة وهى فى الرسالة الأولى التى عنوانها عيون الحكمة من تسع رسائل فى الحكمة وكذلك يقول فى الرسالة الثالثة التى عنوانها فى القوى الإنسانية وإدراكاتها «أن قوى روح الإنسان تنقسم إلى قسمين : قسم موكل بالعمل ، وقسم موكل بالإدراك ، والعمل ثلاثة أقسام : نشئ وأنسانى وحيوانى . . العمل النشئ حفظ الشخص وتنميته بالغذاء وحفظ النوع بالتوليد وقد سلط عليهما أحدى قوى روح الإنسان وقوم يسمونها القوة النباتية الخ» وراجع له أيضاً النجاة القسم الثانى مطلع المقالة السادسة .

هاج فى قلبه بعض هذه النيران التى ليس لها نور والتى وصفتها من قبل والتى لم أتصورها من طبيعة مغايرة للتى تسبب الحرارة فى الكلأ الذى يخزن قبل أن يصبح يابساً أو تلك التى تخمر الأنبذة الجديدة حينما نتركها للاختمار عصيراً كدرا بدون بذور ، لأننى لما درست الوظائف التى يمكن تبعاً لتلك الفروض أن توجد فى هذا الجسم . وجدت فيها تماماً كل الوظائف التى يمكن أن تكون فينا دون أن نفكر فيها ، وتبعاً لذلك دون أن تشترك فى ذلك نفسنا ، أعنى الجزء المتميز عن الجسم وهى التى قيل عنها من قبل أن طبيعتها ليست إلا أن تفكر ، وهذه الوظائف هى كل ما يمكن أن يقال أن الحيوان عديم النطق يشابهنا فيه . ولم أستطع من أجل هذا أن أجد بينها وظيفة من تلك التى باستقلالها عن الفكر تكون وحدها هى التى تخصنا باعتبارنا أناسى . بينما وجدتها جميعاً فيها بعد ذلك ، لما فرضت أن الله قد خلق نفساً ناطقة ، وأنه أضافها إلى ذلك الجسم فى هيئة معينة وصفتها .

ولكن لكى يستطيع المرء أن يتبين كيف بحثت فى هذا الموضوع ، فأنى أريد أن أورد هنا تفسير حركة القلب والشرايين ، التى لما كانت الأولى والأكثر عموماً بين ما يشاهد المرء فى الحيوان (٤٧) فإنه بذلك يحكم بسهولة بما ينبغى أن يراه فى الحركات الأخرى .

ولكى تقل الصعوبة فى فهم ما سأقوله فى هذا الموضوع فأنى أريد من الذين لم يتعمقوا فى علم التشريح ، أن يجتهدوا قبل قراءة ذلك ،

فى أن يشرح أمـامهم قلب حيـوان كبيـر له رئتان ، لأنه يشـبه من كل الوجوه قلب الإنسان مـشابهة كافية ، وأن يبين لهم التـجويفان الموجودان فيه : أولاً التجويف الموجود فى جهـته اليمنى ، والذى تتصل به أنبوبتان واسعتان جداً وهما الوريد الأجوف وهو المجتمع الرئيسى للدم ، وهو مثل ساق الشجرة وكل الأوردة الأخرى كأنها فروعها . ثم الوريد الشريانى[1] الذى سمى كذلك تسمية غير جـيدة ، لأنه فى الحقيقة شريان ، يبدأ من القلب ، ثم ينقسم بعد خروجه منه إلى فـروع كثيرة تنتشر فى كل مكان من الرئتين ، ثم التجويف الموجود فى جـهة القلب اليسرى ، وتتصل به على ذلك الوجه أنبـوبتان فى حجم السـابقتين أو أكبر ، وهمـا الشريان الوريـدى[2] وقد سـمى كـذلك تـسمية غـير جيـدة أيضاً ، لأنه ليس إلا وريداً ، يأتى من الرئتين ، حيث ينقـسم إلى فروع كثيـرة ، تشتبك مع فروع الوريد الشريانى ، ومع فروع تلك الأنبوبة التى تسمى قصبة الرئة ، والتى يدخل خلالها هواء التنفس ، ثم الشـريان الكبير[3] ، الذى يخرج

(١) أى الشريان الرئوى الـذى ينقل دم الأوردة من التجويف الأيمن إلـى الرئة (جلسون : التعليق على المقال ص ٣٩٨) .

(٢) قال حنين بن اسحاق العبادى « . . . وهذا العرق هو المعروف بالشريان الوريدى سمى بهذا الاسم لأن هيئـته هيئة وريد وفعله فعل شـريان» رسالة الفرق بين الروح والنفس نشرها الاباء اليسوعـيون فى مجموعة مقالات فـلسفية قديمة لبعض مشاهيـر فلاسفة العرب . ص ١٢٢ .

(٣) وتسميه العرب الأبهر .

من القلب فيبعث بفروعه في الجسم كله ، وأريد أيضاً أن يبين لهؤلاء بعناية الصمامات الصغيرة الآحدى عشرة التى كأنها أباب صغيرة كثيرة ، تفتح وتغلق الثغرات الأربع ، الموجودة فى هذين التجويفين : ثلاثة منها في مدخل (٤٨) الوريد الأجوف ، موضوعة وضعاً خاصاً بحيث لا تقدر البتة على أن تمنع الدم الذى يحويه من أن ينسكب في التجويف الأيمن للقلب ، ومع ذلك فهى تمنعه تماماً من أن ينفذ إلى الخارج ، وثلاثة فى مدخل الوريد الشريانى ، وهى موضوعة بعكس الأولى بحيث تسمح للدم الذى هو فى داخل هذا التجويف ، أن يمر إلى الرئتين ، ولكنها لا تسمح للذى هو فى داخل الرئتين أن يعود إلى التجويف ، وكذلك اثنان آخران في مدخل الشريان الوريدى ، وهما يسمحان للدم أن يسيل من الرئتين إلى تجويف القلب الأيسر ، ولكنهما يمنعان رجوعه ، وثلاثة فى مدخل الشريان الكبير ، وهى التى تبيح للدم أن يخرج من القلب ، ولكنها تمنعه من أن يعود إليه . ولا حاجة إلى البحث عن علة أخرى لعدد هذه الصمامات ، غير أن فتحة الشريان الوريدى ، لما كانت على شكل أهليلجى[1] بسبب المكان الذى هى فيه ، فيمكن أن يحكم أغلاقها بصمامتين ، على حين أن الفتحات الأخرى لما كانت مستديرة أمكن اغلاقها بثلاثة على وجه أفضل . ثم أننى أريد أن ينبه هؤلاء إلى ملاحظة أن نسيج الشريان الكبير والوريد الشريانى أصلب وأمتن بكثير من نسيج

---

(١) أى بيضوى .

الشريان الوريدى ، والوريد الأجوف ، وأن هذين الأخيرين يتسعان قبل أن يدخلا القلب، وفيه يكونان شبه كيسين ، يسميان باذينتى القلب ، وهما مكونتان من لحم يشبه لحم القلب ، وأن يلاحظوا أن الحرارة فى القلب أكثر منها فى أى مكان آخر من الجسم . وأخيراً فإنه إذا دخلت قطرة من الدم فى تجاويفه فإن هذه الحرارة قادرة (٤٩) على أن تجعلها تتمدد بسرعة وتنبسط كما هو شأن السوائل كلها غالباً ، عندما ندعها تسقط قطرة قطرة فى عاء شديد الحرارة .

لأننى بعد هذا . غير محتاج إلى أن أقول شيئاً آخر لتفسير حركة القلب . غير أنه عندما لا تكون تجاويفه ملأى بالدم ، فإنه يسيل اليها بالضرورة من الوريد الأجوف فى التجويف الأيمن ، ومن الشريان الوريدى فى التجويف الأيسر . مادام هذان الوعاءان مملوءين بالدم دائماً وفتحاتهما التى تطل على القلب ، لا يمكنها اذ ذاك أن تكون مغلقة ، ولكن عندما تدخل كذلك قطرتان من الدم ، كل واحدة فى أحد تجويفى القلب فإن هذه القطرات ، التى لا يمكن إلا أن تكون كبيرة لأن الثغرات التى تلج منها إلى التجاويف واسعة جداً ، ولأن الأوعية التى ترد منها ملآى بالدم جداً ، تتخلخل[1] وتتمدد بسبب الحرارة التى تقابلها هناك ، والتى

(١) التخلخل هو حركة الجسم من مقدار إلى مقدار أكبر يلزمه أن يصير قوامه أرق مع وجود اتصاله راجع ابن سينا فى الحدود وهى الرابعة من تسع رسائل فى الحكمة وابن سينا يورد حدوداً أخرى للتخلخل ولكن ديكارت يقصد الحد الذى اقتبسناه وهو ما يتفق مع التعريف الحديث لتلك الظاهرة الطبيعية .

بواسطها يتمدد القلب فتدفعان وتغلقان الأبواب الخمسة الصغيرة التى هى فى مدخل الوعـاءين ، والتى جاءتا منها ، وبذلك يمنعان أن يـصعد إلى القلب أى مزيد من الدم ، وباستمرارهما فى التخلخل شـيئاً فشيئاً تدفعان وتفتـحان الأبواب الستـة الأخرى التى هى فى مدخل الوعـاءين الأخرين والتى تخرجـان منها . وبهـذه الطريقة تمددان كل فروع الـوريد الشريانى والشريان الكبيـر مصاحبة للقلب فى نفس اللحظة تقريـباً . الذى سرعان ما ينقبض بعد ذلك ، كما تفعل كذلك أيضاً هذه الشرايين . وذلك لأن الدم الذى دخل فيها يبرد في داخلها وتغلق أبوابها الستة ، وتنفتح أبواب الوريد الأجوف والشريان الوريدى الخمسة وتفسح الطريق لقطرتين أخريين من الدم ، تمددان ( ٥٠) القلب والشرايين من جديد كما فعلت السابقتان.
ولما كان الدم الذى يدخل هذا القلب كـما وصفت ، يمر بهـذين الكيسين الذين يسميان بأذينتـيه ، نشأ عن ذلك أن حركتهما تكون مـخالفة لحركة القلب وانهما ينقـبضان عندما ينبسط . ثـم لكى لا يغامر هؤلاء الذين لا يعرفون قوة البراهين الرياضية ، ولم يتعودوا التـمييز بين الحجج الحقيقية والشبيهة بها[1] نكران مـا قلت دون امتحـانه ، أريد أن أنبهـهم إلى أن الحركة التى وصـفتها تتـبع حتماً نفس وضع الأعضـاء التى يستطيع المرء رؤيتـها فى القلب بالـعين والحرارة التي يقـدر على الاحـساس بهـا فيـه بالأصابع ، وعن طبيـعة الدم الذى يمكنه أن يعرفه بالتجربة ، كـما تتبع

(١) أى المحتملة أو الراجحة .

حركة الساعة بالضرورة ، القوة ، والوضع ، والشكل التى هى لما فيها من لولب وعجل .

ولكن إذا سأل سائل كيف لا ينضب دم الأوردة ، وهو يصب دائماً على هذا الوجه فى القلب ، وكيف لا تمتلئ به الشرايين امتلاء مفرطاً مادام كل الذى يمر بالقلب يصير إليه ، فأننى غير محتاج إلى أن أرد عليه بأكثر مما كتبه من قبل طبيب من انكلترا[1] ، يجب أن يثنى عليه لحله تلك المعضلة ، ولكونه أول من قال بوجود مسارب صغيرة كثيرة فى نهايات الشرايين ، منها يدخل الدم الذي يصلها من القلب فى الفروع الصغيرة للأوردة ، ومنها يصير من (٥١) جديد إلى القلب ، بحيث لا يكون جريانه إلا دورة مستمرة . والذى يثبت هذا أفضل أثبات هو التجربة العادية للجراحين الذين إذا ربطوا الذراع برفق فوق المكان الذى يفتحون منه الوريد يجعلون الدم يخرج منه بأكثر غزارة مما لو لم يربطوه ويحصل العكس إذا ربطوه من أسفل ، بين اليد والفتحة ، أو إذا ربطوه من أعلى ربطة قوية جداً . لأنه من الواضح أن الرباط المشدود برفق ، يمكنه أن يمنع الدم الموجود من قبل فى الذراع من أن يعود إلى القلب بواسطة الأوردة ولا يمنعه من أجل هذا من أن يأتى منه من جديد بواسطة

---

(١) كتب فى هامش النص الفرنساوى هارفى حركة القلب باللغة اللاتينية وهارفى المذكور هو طبيب انجليزى مشهور باستكشافه لدورة الدم وقد عاش من سنة ١٥٧٨ إلى سنة ١٦٥٨

الشـرايين ، لأن وضعـها تحت الأوردة ولأن جلودها لما كـانت أصلب ، قضغطها أقل سهولة ، وكذلك فإن الدم الذي يرد من القلب ينزع إلى أن يمر بها نحو اليد ، بقوة أكـثر منها عند عودته من اليد إلى القلب بطريق الأوردة . ولما كان هذا الدم يخرج من الذراع بواسطة الفـتحة التى هى فى أحد الأوردة ، فيجب حتماً أن تكون له بعض مسارب تحت الرباط ، أى فى اتجاه نهايات الذراع وبها يسـتطيع الدم أن يأتى من الشرايين . ويثبت هذا الطبيب أيضاً اثباتاً قوياً ما يقـوله عن جريان الدم ، بوجود صمامات صغيرة ، وهى موضوعة في أماكن مختلفة على طول الأوردة ، بحيث لا تسمح للـدم أن يمر بها من وسط الجسم إلـى النهايات ولكنهـا تسمح له بالعودة من النهايات إلـى القلب فقط . وأكثر من ذلك فهـو يثبت دعواه بالتجـربة التى تبين أن كل الدم الموجود فى الجسم يسـتطيع أن يخرج منه فى قليل من الزمن بواسطة شـريان واحد عندما يكون مقطوعـاً حتى ولو كان مربوطاً باحكام قـريباً جداً من القلب ، وأن يكون مقطوعاً فـيما بين القلب والرباط على وجه لا يجعل محـلاً لتخيل أن الدم الذى يخرج منه يأتى من جهة أخرى (٥٢) غير القلب .

ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة تشهـد بأن السبب الحقيقى فى حركة الدم هو مـا قلتـه . مثـلاً ، أولاً ، الفـرق الذى نلاحظه بين الدم الذى يخرج من الأوردة والدم الذى يخـرج من الشرايين ، لا يمكن أن ينتج إلا من أن الدم يتـخلخل ، وكأنه يصفـى ، وهو مار بالقلب ، فـهو ألطف

وأكثر حياة وأقوى حرارة ، بعد خروجه منه مباشرة ، أى عند وجوده فى الشرايين ، منه قبيل أن يدخل القلب . أى عند وجوده فى الأوردة ، وإذا انتبه المرء إلى ذلك ، فـأنه يجد أن هذا الفرق لا يظهر جـيداً إلا بالقرب من القلب، ولا يظهر كذلك فى أبعد الأماكن عنه، ثم أن صلابة الجلد ، الذى يتركب منه الوريد الشـريانى والشريان الكبير ، كافـية فى اثبات أن الدم يدفعهـا بقوة أكثر مما يفـعل مع الأوردة . ولماذا يكون تجويف القلب الأيسر والشريان الكبير أوسع وأكبر من التجويف الأيمن والوريد الشريانى؟ إلا أن يكون السبب هو أنه لما لم يكن دم الشريان الوريدى ، موجوداً فى غير الرئتين منـذ مروره بالقلب ، فهو ألطف وأقوى تخـلخلاً وأسهل من ذلك الذى يأتى مـباشرة من الوريد الأجـوف . وماذا يسـتطيع الأطباء أن يستنبطوه ، عندما يجسون النبض ، إذا لم يعرفوا أنه ، تبـعاً لتغير طبيعة الدم ، فإنه يستطيع أن يتخلخل بواسطة حرارة القلب بقوة أقل أو أكثر ، وبسرعة أشد أو أضعف من ذى قبل ؟ وإذا بـحث المرء عن كيفية سريان تلك الحرارة إلى (٥٣) الأعضاء الأخرى ، فهلا يجب الاعتراف بأن ذلك يكون بواسطة الدم الذى يمر بالقلب فتزداد حرارته فـيه ، ومنه ينتشر إلى كل أنحاء الجسم ، ومن ثم فـإن المرء إذا نزع الدم من بعض الأجزاء فانه بذلك ينزع منه الحرارة ، ولو كان القلب حاراً كنار مسـتعرة لما كان كافياً فى تدفئة الأقدام والأيدى هذه التدفئـة مادام لا يبعث إليها بالدم من جديد باستمرار . ثم أن المرء يـعرف من هذا أيضاً أن الوظيفة الحقيـقية للتنفس

هى استحضـار الكفاية من الهواء النقى فى الرئة كى يمكن للدم الذى يأتى إليها من تجويف القلب الأيمن حيث تخلخل واستحال إلى شبه بخار ، أن يخثر ويستحيل ثانية إلى دم قبل أن يسقط في التـجويف الأيسر، وبدون هذا فهو لا يقدر على أن يكون صالحاً لأن يكون غذاء للنار الموجودة فيه . ويؤيد هذا أن المرء يرى أن الحيوانات التى ليس لهـا رئات ليس لها أيضاً إلا تجويف واحد فى القلب ، وأن الأطفال الذين لا يستطيعـون استعمالها وهم أجنة في بطون أمهاتهم لهم فتحة منها يسيل الدم من الوريد الأجوف إلى تجويف القلـب الأيسر ، ومجـرى فيه يأتى من الوريـد الشريانى إلى الشـريان الكبيـر بدون أن يمر بالرئة . ثم أنه كـيف يحصل الهـضم فى المعدة ، إذا لم يرسل القلب إليـها حرارة بواسطة الشرايين ومـعها بعض من أشد أجـزاء الدم سيلاناً تعين على اذابه اللحـوم التى وضعت فيـها ؟ وكذلك أليس العمل الذى يحيل عصير تلك اللحوم إلى دم سهل المعرفة، إذا راعينا أنـه يصفى عند مروره وتـكرار مروره بالقلب مـرات ربما كانت أزيد من مائة مرة أو مائتين فى كل يوم ؟ وهل للمرء حاجة إلى شئ آخر لتفسير تغذية السـوائل[1] الموجودة في الجـسم وتوليدها ، غيـر القول بأن القوة (٥٤) التى بها يمر الدم عند تخلخـله من القلب إلى نهايات الشرايين تجعل بعض أجزائه تقف فى الأجـزاء التى توجد فيها من الأعضـاء وفيها تحل محل أخـرى تطردها منها ، وأنه تبـعاً للوضع أو الشكل أو صـغر

---

(١) أى الريق والعرق والبول .

المسام التى تصادفها فإن بعض أجزاء الدم تسير إلى بعض الأماكن مختارة لها على البعض الآخر كما أن كل إنسان يستطيع رؤية غرابيل مختلفة متفاوتة الخروق يستخدمها فى فصل حبوب مختلفة بعضها عن بعض ؟ وأخيراً فان أكثر ما فى كل ذلك استحقاقاً للذكر هو تكوين الأرواح الحيوانية التى تشبه ريحاً لطيفاً جداً . أو هى أشبه ما تكون بلهب جد نقى وجد مضئ ، يصعد باستمرار وبغزارة من القلب إلى المخ فينتقل منه بواسطة الأعصاب إلى العضلات ، ويعطى الحركة لكل الأعضاء ، دون أن يلزم المرء أن يتخيل علة أخرى تجعل أجزاء الدم التى لما كانت هى الأكثر حركة ونفوذاً ، فهى الأصلح لتكوين هذه الأرواح ، أن تتجه نحو المخ بدلاً من أى اتجاه آخر ، الا أن تكون تلك العلة هى أن الشرايين التى تحملها هناك هى التى تأتى من القلب فى خطوط أكثر ما تكون استقامة وأنه تبعاً لقواعد الميكانيكا التى هى نفس قواعد الطبيعة ، فأنه عندما تميل أشياء كثيرة مجتمعة إلى التحرك نحو جهة واحدة مثل أجزاء الدم التى تخرج من تجويف القلب الأيسر مائلة إلى جهة (٥٥) المخ ، فبما أنه لا يكون لتلك الجهة سعة للجميع ، فإن ما كان منها أضعف وأقل حركة ، ينبغى أن يدفع بواسطة الأقوى ، وبذلك تذهب هذه وحدها إليها .

شرحت كل هذه الأشياء بتفصيل واف فى الرسالة التى أشرت آنفاً إلى عزمى على نشرها . وبينت فيها بعد ذلك ما ينبغى أن يكون عليه

تكوين أعـصـاب الجـسـم الإنسـانى وعـضـلاته ، حـتى تجـعل الأرواح الحيوانية[1] التى هى داخل الجسم ذات قوة تحـرك أعضـاءه : كمـا ترى الرؤوس على أثر قطعـها لاتزال تتـحرك وتعض الأرض مع أنهـا لم تعد حيـة ، وبـينت أيضاً أى التغـييرات تحـصل فى المخ لتسـبب اليقظة ، والنوم ، والأحلام ، وكـيف يستطيع الضـوء ، والأصوات ، والروائح ، والمطاعم ، والحرارة ، وسـائر صفات الأشيـاء الخارجية ، أن تطبع فـيه صـوراً مخـتلفة بتـوسط الحـواس وكيف يسـتطيع الجـوع والظمأ وسـائر الانفعـالات الباطنـة أن تبـعث إليه أيضـاً بصورها ووضـحت ما الذى ينبـغى اعتباره الحس المشترك[2] الذى يقبل كل تلك الصـور . وما المراد

---

(١) «الروح الحيـوانية هى للحـيوان الناطق وغـير الناطق وهى فى القلب وتنبـعث منه فى الشرايين وهى العروق الضوارب ، إلى أعضـاء البدن» الخوارزمى مفاتيح العلوم ص ٨٣ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ .

(٢) فى العصور الوسطى كانت تقسم الحواس تبـعاً لتقسيم أرسطو إلى ظاهرة وباطنة : أما الظاهرة فهى الحـواس الخمـس ، وأما البـاطنة فقد قـصرها أوسطو على ثلاث وهى الحس المشترك والخيال والحافظة على أن علماء العرب توسعوا فى فهم الخيال والحافظة فنتج عن ذلك تقـسيم آخر للحـواس الباطنة وهذا مـا سنعرض له عن قـريب . أما الحس المشترك فـلقد كانوا يقولون وكذلـك يقول ديكارت أنها قوة مرتـبة فى تجويف معين فى الدمـاغ وهى التى تجتمع فيـها كل الصور المدركة بالحـواس الخمس . وقد كتب عنها ابن سينا فى الشفاء ص ٣٣٢ من طبعة طهران «أما الحس الذى هو المشترك فهو بالحـقيقة غير مـاذهب إليه من ظن أن للمحسوسات المشـتركة حساً مشـتركاً بل الحس المـشترك هـو القـوة التى تتأدى إليها المحـسوسات كلها فأنه لو لم تكن قوة =

بالخيال[1] الذى يحفظ هذه الصور وبالمتصرفة[2] التى تستطيع تغييرها

= واحدة تدرك الملون والملموس لما كان لنا أن نميز بينها» وقال في صفحة ٣٣٢ «فهذه القوة هي التى تسمى الحس المشترك وهى ركن الحواس ومنها تتشعب الشعب وإليها تؤدى الحواس» ويسمى الحس المشترك أيضاً الحس العام .

(١) استعمل ديكارت هنا كلمة Mémoire وهى فى هذا الموضع ترادف كلمة Imagin-ation أى الخيال وهو القوة التى تحفظ ما يقبله الحس المشترك من الصور وتستبقيه بعد غيبة المحسوسات فالخيال إذن خزانة الحس المشترك ، وهذا ما يتفق فيه ديكارت مع فلاسفة الإسلام .

(٢) استعمل ديكارت كلمة Fantaisie وقد رأيناها معربة عند ابن سينا فى كتاب النجاة ص ٢٦٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ فى قوله «فمن القوى المدركة الباطنة الحيوانية قوة فنطاسيا أى الحس المشترك» وهذا غير صحيح وربما نشأ الخطأ من أن محلهما فى الدماغ واحد فهو عند ديكارت الغدة الصنوبرية ولكنهما مختلفات فى الوظيفة (راجع جلسون التعليق ٤ ص ٤٢٠) والحس المشترك فى اليونانية هو (كوينى أيستيسس) وليس فنطاسيا كما أننا رأينا الكلمة معربة أيضاً عند محمد بن أحمد الخوارزمى ويعرفها بقوله «فنطاسيا هى القوة المخيلة من قوة النفس وهى التى يتصور بها المحسوسات فى الوهم وان كانت غائبة عن الحس وتسمى القوة المتصورة والمصورة» مفاتيح العلوم ص ٨٣ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ وهذا كلام ظاهر فيه الخلط . وعلى العموم فالمقصود بالمتصرفة القوة التى بها تركب المحسوسات بعضها إلى بعض ونفصل بعضها من بعض لا علي الثبوت الذى وجدناها عليه من خارج ولا مع تصديق بوجود شئ منها أو لا وجوده . . . وهذه هى التى إذا استعملها العقل تسمى متفكرة وإذا استعملتها قوة حيوانية تسمى متخيلة» ابن سينا الشفاء ص ٣٣٣ طبعة طهران . وهذا ما يتفق مع مراد ديكارت وهو أقرب إلى تعريف أرسطو=

بطرق مختلفــة ، وإن تؤلف منها صوراً جديدة ، وهى بتــوزيعها الأرواح الحيوانية على هذا الوجه فى العضــلات تحرك أعضاء هذا الجسم فى هيئات متباينة كثيرة . وبحسب مناسبات الأمور التى تعرض لحواسه والانفعالات الباطنة التى هى فــيه على مقدار مــا تستطيع أعضاؤنا أن تــتحرك دون أن تقودها الإرادة[1] ولن يبدو ذلك غريــباً قط للذين هم بسبب معــرفتهم أن

---

= لفنطاسيا فى كتابه عن النفس بقوله : «هى الحركة للعقل منشؤها الأحساس» .

ثم أن ابن سينا قد أضاف إلى تلك القوى قوة أخرى يســميها بالوهمية (راجع تهافت الفلاسفة لابــن رشد حيث يقول «. . . ابن سينا وهو يخالف الفــلاسفة فى أنه يضع فى الحيوان قوة غيــر القوة المتخيلة يسميها وهمية الخ» ص ١٢٧ طبــعة القــاهرة سنة ١٣٢١ ويقصد بها ابن سينا القوة التى تدرك المعانى غير المحسوســة فى المحسوسات الجزئية وبتــعبير آخر إدراك المــعنى الجزئى المتعلق بالمعنى المحســوس مثل ادراك الشاة العداوة فى الذئب : وإذن فقــوى النفس الحيوانية التى يعبر عنهــا بالحواس الباطنة هى خمس : الحس المشترك وهو الذى يقبل صور المحســوسات كلها والخيال وهو خزانته أى القــوة التى تحفظ تلــك الصور والوهم وهو إدراك المعــانى غــير المحــسوســة فى المحسوســات مثل ادراك الشاة للعداوة فى الذئب ثم الحــافظة أو الذاكرة وهى خزانة الوهم ثم المتــصرفة وهى التى تتصــرف فى المحســوسات فتــؤلف بعضــها مع بعض وتفصل بعضها من بعض غير متبعة فى ذلك نظام وجودها فى الخارج كما تفعل فى المعانى وهذه القوة إذا اســتعملها العقل تســمى مفكرة وإذا استعــملها الوهم تــسمى متخيلة .

(١) لأن الوظائف التى سبق ذكرها كلهــا حيوانية وهى ليست فى حــاجة إلى تدخل العقل بواسطة الإرادة

كثيراً من التحركات بذاتها والالات المتحركة تستطيع صناعة الناس عملها دون أن يستعمل (٥٦) فى أنشائها إلا قطع قليلة إذا قورنت بالكثرة العظيمة من العظام والعضلات والأعصاب والشرايين والأوردة . ومن كل الأجزاء الأخرى الموجودة فى جسم كل حيوان ، سيعتبرون هذا الجسم كآلة لما كانت مصنوعة بأيدى الله ، فهى إلى حد يجل عن المشابهة خير نظاماً . ولها من ذاتها حركات أدعى للاعجاب من أى آلة يقدر الناس على اختراعها .

وقفت هنا خاصة لكى أبين إذا وجدت آلات لها أعضاء وصورة قرد أو صورة أى حيوان آخر غير ناطق فأنه لن تكون لنا أية وسيلة لنعرف أنها ليست من نفس طبيعة هذه الحيوانات فى كل شئ فى حين أنه لو أن منها ماله شبه بأجسامنا وكان يقلد من أعمالنا ما يمكن تقليده امكاناً خلقياً[1] . لكان لنا دائماً طريقتان جد وثيقتين لمعرفة أنها ليست من أجل هذا ناسا على الحقيقة . أولى هاتين الوسيلتين هى أن هذه الآلات لن تقدر مطلقاً على أن تستعمل الكلمات أو أى اشارات أخرى تؤلفها كما نفعل نحن لنصرح للآخرين بأفكارنا فقد يستطاع أن يتصور خير تصور أن آلة تصنع على هيئة مخصوصة بحيث تنطق بكلمات بل وان تنطق ببعضها بمناسبة أعمال بدنية تسبب تغييراً فى اعضائها : كأن تلمس فى

(١) أى كافياً لسد حاجات الحياة العملية (انظر ص ٦٩) وهذا بالنسبة للإنسان هو الامكان العادى .

بعض المواضع فتسأل عما يراد أن يقال لها ، وتلمس فى موضع آخر فتصيح بأن ذلك يوجعها وما شابه ذلك . ولكن لا يستطاع أن يتصور أنها تنوع تأليف الألفاظ لتجيب أجوبة مطابقة لكل ما يقال فى حضرتها كما يستطيع أن يفعل أغبى الناس . وأما (٥٧) الثانية فهى أنه مع أنها تعمل أشياء كثيرة مثلما يعمل أى واحد منا بل قد تعمل خيراً مما يعمل فانها لابد تفشل فى أعمال أخرى منها يتبين أنها لا تعمل عن علم . ولكن بواسطة وضع أعضائها فأنه على حين أن العقل هو آلة عامة يمكن استخدامها فى كل أنواع الطوارئ فإن هذه الأعضاء فى حاجة إلى وضع خاص لكل عمل على حدة . ومن ثم يتتج أنه من المستحيل أخلاقيا[1] أن يكون فى آلة من تنوع الأعضاء ما يكفى لجعلها تعمل فى كل ظروف الحياة على نحو ما يبعثنا عقلنا للعمل .

وبنفس هاتين الوسيلتين يستطيع المرء أن يعرف الفرق بين الإنسان والحيوان . لأنه مما يستحق الذكر أنه ليس من الناس الأغبياء والبلداء ، حتى دون استثناء البلهاء منهم ، من لا يقدرون على تأليف كلمات مختلفة ، وأن يركبوا منها كلاماً به يجعلون أفكارهم مفهومة وبالعكس فليس من حيوان آخر مهما كان كاملاً ومهما نشأ نشأة سعيدة يستطيع أن يفعل ذلك . وهذا لا ينشأ عن نقص فى الأعضاء ، لأن المرء يرى العقعق والببغاء تستطيع أن تنطق ببعض الكلمات مثلنا ، ولكنها مع ذلك

---

(١) أى عادة وغرضه لحاجة الحياة العملية (انظر ص ٦٩) .

لا تستطيع أن تنطق مثلنا ، أى نطقاً يشهد بأنها تعى ما تقول ، فى حين أن الناس الذين ولدوا صماً وبكماً ، فحرموا الأعضاء التى يستخدمها غيرهم (٥٨) للكلام مثل حرمان الحيوان أو أشد اعتادوا أن يستنبطوا من تلقاء أنفسهم بعض اشارات يتفاهمون بها مع من يجدون فرصة لتعلم لغتهم لأنهم يعيشون معهم . وهذا لا يشهد بأن للحيوانات من العقل أقل مما للإنسان ، بل يشهد بأنه ليس للحيوانات عقل مطلقاً . فأننا نشهد أن معرفة الكلام لا تحتاج إلا إلى شئ من العقل جد قليل . ولما كان من الملاحظ التباين بين أفراد النوع الواحد من الحيوان ، كما فى أفراد الإنسان، وأن البعض أيسر أن يراض من البعض الآخر فإنه لا يصدق أن قرداً أو ببغاء من أكمل نوعه ، يكافئ فى ذلك طفلاً من أغبى الأطفال ، أو على الأقل طفلاً ذا مخ مضطرب ، ولا يكون هذا إلا إذا كانت روح الحيوانات من طبيعة مخالفة لطبيعة روحنا كل المخالفة . ولا ينبغى أن يخلط بين الكلام والحركات الطبيعية التى تعبر عن الانفعالات ويمكن أن تجيد تقليدها الآلات كما تقلدها الحيوانات ، ولا ينبغى أيضاً الذهاب مع بعض المتقدمين إلى أن الحيوانات تتكلم . ولو أننا لا نفهم لغتها ، لأنه لو كان ذلك حقاً لكان فى استطاعتها أيضاً مادامت لها أعضاء كثيرة تشابه أعضاءنا ، أن تتفاهم معنا كما تتفاهم مع أمثالها . وكذلك مما يستحق الملاحظة ، أنه مع وجود حيوانات كثيرة تظهر من الصنعة فى بعض أعمالها أكثر مما تظهر ، فأنه يرى مع ذلك أن نفس تلك الحيوانات

لا تظهر شيئاً من الصنعة فى أعمال كثيرة أخرى ا بحيث لا يدل ما تعمله أحسن منا على أن لها نفساً ، فإنه على هذا الاعتبار (٥٩) كان ينبغي أن يكون لها منها أكثر مما يكون لأى واحد منا فتعمل فى كل الأمور أحسن مما نعمل ولكن هذا يدل على أنه ليس لها نفس وأن الطبيعة هى التى تعمل فيها تبعاً لوضع أعضائها كما يرى فى الساعة التى لا تتركب إلا من عجل ولولب فأنها تستطيع أن تحصى الساعات وتقيس الزمان بأكثر منا دقة مع كل ما لنا من تيقظ وفطنة .

وصفت النفس الناطقة بعد ذلك وبينت أنها لا يمكن البتة أن تكون منتزعة من قوة المادة كما تنتزع الأشياء الأخرى التى تكلمت عنها ولكن يجب حتماً أن تكون مخلوقة . وبينت كيف أنه لا يكفى أن تكون ساكنة فى الجسم الإنسانى كما يسكن البحار فى سفينته[1] . لا يكفى هذا إلا فى أن يمثل تحريكها لأعضائه بل أن هناك حاجة إلى أن تكون متصلة بالبدن ومتحدة معه على وجه أوثق حتى يكون لها عدا ذلك عواطف وشهوات مماثلة لما عندنا منها بذلك يتألف إنسان حقيقى . ثم أننى أطنبت هنا

---

(١) هذا التشبيه من أرسطو همـلان مـذهب ديكارت ٣ ص ٢٧٧ ويقول ديكارت مـا يوضح ذلك فى التأملات السادسة ١٢ «أننى لست مقيماً فى جسمى كما يقيم البحار فى سفينته ، ولكننى فوق ذلك متصل به اتصالاً وثيقاً ومختلط معه بحيث أؤلف معه وحدة منفردة . لأنه إذا لم يكن ذلك ، فما كنت لأشعر بألم إذا أصيب بدنى بجرح، وأنا الذى ليس إلا شيئاً مفكراً ، ولكنى أدرك ذلك الجرح بالعقل وحده ، كما يدرك البحار بنظرة أي عطب فى السفينة» .

قليلاً فى الكلام على مسألة الروح لأنها من أهم المسائل ؛ إذ ليس خطأ بعد خطأ الجاحدين لله ، وهو خطأ أعتقد أننى دحضته دحضاً كافياً فيما سبق ، ليس خطأ يبعد النفوس الضعيفة عن طريق الفضيلة المستقيم ، كتوهم أن روح الحيوانات هي من نفس طبيعة روحنا ، ويتبع هذا التوهم ، أنه ليس يوجد ما نخشاه أو نأمله . بعد هذه الحياة ، كشأن الذباب والنمل فى حين أنه من علم مبلغ اختلافهما ، كان أحسن فهما للحجج التى تثبت أن روحنا هى من طبيعة مستقلة كل الاستقلال عن الجسم ، وأنها تبعاً لهذا ليست عرضة للموت معه ، (٦٠) ثم أنه على مقدار كوننا لا نرى غير الموت علة لفنائها ، فإنه يحملنا ذلك بالطبع على أن نحكم من هذا بأنها خالدة .

# القسم السادس

مضت الآن ثلاثة أعوام منذ أنتهيت من الرسالة التى تحتوى على كل هذه الأشيـاء ، وأخذت فى مراجـعتهـا ـ كى أضعـها بين يدى طابع . عندما علمت أن أشـخاصاً أجلهم ، ولهم من السلطة على أعـمالى ما لا يقـل عـمـا لعـقـلى من السلطة على أفكـارى ، لم يقـروا رأياً فى علم الطبيعة ، أذاعه البعض[1] قبل الآن بقليل ، ولا أريد أن أقول اننى كنت على هـذا الرأى . ولكنى أريد أن أقـول أننى لم ألاحظ فـيـه قـبل استنكارهم ، ما أستطيع أن أتوهمه مضراً بالدين أو بالدولة ، وبالتالى ، ما كان يمنعنى أن أكتبـه لو أن العقل أقنعنى به ، وأن هذا جعلنى أخشى أن يكون بين آرائى ما أخطأت فيه ، رغم ما كان لى من عظيم العناية فى ألا أدخل فى اعتقادى شيئـاً جديداً ، ما لم تقم له عندى البراهين الوثيقة

---

(١) يقصد بالبعض غـاليليه وبالأشخاص الذين يجهلم رجال الدين الذين كـانوا يختصون بمراقبة الحركة الفكرية . ولقد أذاع غاليلـيه فى سنة ١٦٣٢ كتابه الذى يقول فيه بدورة الأرض فدانته محكمة التفتـيش بروما . ولقد أتم ديكارت كتابه العالم Le Monde سنة ١٦٣٣ ولكن علمـه بنصيب غـاليليه ورغـبته فـى عدم اثارة رجال الدين عـليه جعلاه يعدل عن نشر كتابه (أنظر المقدمة) .

جداً ، وألا أكتب عنه شيئاً يمكن أن ينال أى إنسان بأذى : وهذا كان كافياً ليضطرنى إلى تغيير ما كنت صممت عليه من نشر هذه البحوث . فإنه وان كانت الحجج التى صممت من أجلها العزم أولاً قوية جداً ، فإن ميلى الذى جعلنى دائماً أكره صناعة عمل الكتب ، سرعان ما جعلنى أجد الكفاية من الحجج الأخرى لاعفائى من ذلك العمل . وكلا النوعين (٦١) من هذه الحجج ذو شأن يجعل لى غرضاً بذكرها هنا ، بل وقد يكون للجمهور أيضاً فائدة فى معرفتها .

ما كنت قط عظيم العناية بالأشياء التى كانت تصدر عن نفسى ، وحين كنت لا أجنى من ثمرات المنهج الذى استخدمه . غير اقتناعى فى معضلات من معضلات العلوم النظرية ، أو محاولتى أن أدبر أخلاقى على مقتضى الحجج التى علمنى اياها هذا المنهج[1] . لم أكن لأعتقد أننى مضطر إلى أن أكتب عنه شيئاً ، ذلك بأنه فيما يتعلق بالأخلاق . فإن كل إنسان يكتفى بعقله ، بحيث كان يمكن أن يكون مصلحون على عدد الرءووس ، لو ساغ لغير الذين نصبهم الله حكاماً على أممه ، أو للذين أفاض عليهم من البركة والهمة ما يكفى لأن يكونوا أنبياء ، أن يتناولوا بالتغيير شيئاً من الأخلاق ، ومع أن أنظارى كانت ترضينى كثيراً ؛

(١) تعرضنا لهذه المسألة أى هل الأخلاق المؤقتة التى بسطها ديكارت فى القسم الثالث من المقال هى مستمدة من منهجه أم لا وذلك فى التعليق على القسم الثالث وقد أشرنا أيضاً إلى تلك العبارة (انظر ص ٣٧ ، ٣٨) .

فأنني كنت أعتقد أن لغيرى أنظاراً أيضاً قد يكونون بها أشد اعجاباً . ولكنى على أثر تحصيلى لبعض المعارف العامة فى علم الطبيعة واختبارى لها فى معضلات مختلفة خاصة . لاحظت مدى ما تستطيع أن تقود إليه ، ومبلغ اختلافها من المبادئ التى يستعان بها حتى الآن ، على أثر ذلك أعتقدت أننى لا أقدر على ابقائها مختبئة ، دون أن أخل اخلالاً كبيراً بالقانون الذى يلزمنا أن نوفر الخير العام لكل الناس على قدر ما فى استطاعتنا لأن هذه الأنظار فى علم الطبيعة بينت لى إمكان الوصول إلى معارف مفيدة للحياة فائدة كبيرة ، وبدلاً من هذه الفلسفة النظرية ، التى تعلم فى المدارس ، فانه يمكن أن نجد عوضاً عنها فلسفة عملية ، (٦٢) بها إذا عرفنا ما للنار ، والماء ، والهواء ، والكواكب ، والسماوات ، وكل الأجرام الأخرى التى تحيط بنا من قوة وأعمال ، معرفة متمايزة كما نعرف مهن صناعنا المختلفة ، فأننا نستطيع استعمالها بنفس الطريقة فى كل المنافع التى تصلح لها ، وبذلك نستطيع أن نجعل أنفسنا سادة ومسخرين للطبيعة[1] . وهذا جدير بأن يرغب فيه لابتداع ما لا يحصى من المصنوعات ، التى تجعل المرء ينعم بدون جهد بثمرات الأرض وبكل ما فيها من أسباب الرفه ، بل ولأجل حفظ الصحة أيضاً ؛ التى هى بلا ريب الخير الأول وهى الأصل لما عداها من خيرات هذه الحياة ؛ فإن

---

(١) يرى الأستاذ لالاند أن ديكارت يقتبس مثله الأعلى للعلم ، الذى يعبر عنه هنا ، من باكون Bacon ولقد أورد فى مقالته المشهورة بعض نصوص من باكون ومن ديكارت الحجج التى يراها كافية للتدليل على هذا الرأى (انظر جلسون التعليق ص ٤٤٦) .

الروح نفسهـا تتصل اتصالاً قوياً بالمزاج ، وببنية أعضـاء البدن ، بحيث أنه إذا كان ممكناً وجود بعض الوسائل التى تجعل الناس عامة أكثر حكمة وحذقـاً مما هم عليه حـتى الآن ، فانى أعـتقد أنه يجب البـحث عن هذه الوسيلة فى الطب . حـقا ان الطب المستعمل الآن يشـتمل على قليل من الأشياء التى لهـا منفعة تذكر ؛ ولكن دون أن أقصد إلى تحـقيره ، فانى واثق أنه لا يوجد إنسـان ، حتى ممن يحتـرفونه ، لا يعتـرف بأن كل ما يعرف منه يكاد لا يكون شيـئاً ، إذا قورن بما يبقى غيـر معروف وأن من المستطاع التخلص مما لا يحصى من الامراض ، بدنيـة كانت أو نفسية بل وقد يتخـلص أيضا من ضعف الهرم ، (٦٣) إذا عـرفت أسبابها مـعرفة كافيـة ، وعرفت كل الأدوية التى زودتنا بها الطبـيعة[١] . ولما كـان من غـرضى أن أنفق كل حيـاتى فى البـحث عن علم ضرورى جـداً . ولما ألفيت طريقاً يظهر لى أنه باتباعه يجب حتماً أن يوجد هذا العلم ، ما لم يعق دونه أما قصر الحياة . أو نقص فى التجارب ، حكمت أنه ليس من دواء لهذين العائقين . خـير من أن أبلغ الجمهور بأمـانة كل القدر القليل

(١) كان ديكارت يعـتقد أن العلم يستطيع أن يحمى الإنسان من الأمـراض ومن ضعف الشيخوخة ولما مات أعلنت صحيفة أنفرس ضد وفاته بهذا التعبير : «مات فى السويد أحمق كان يقول أن فى استطاعته أن يعمر فى الحياة ما شاء» الأعـمال الكاملة طبعة أدام وتانرى ج ١٠ ص ٦٣٠ ورأى مؤرخ حياته بايـه عن بعض أصدقاء ديكارت أنه دهش عندما بلغه نعيه إذ أنه كان واثقا أنه سـيعيش على الأقل خمسة قرون ، ما لم يمت موتاً غير طبيعى . راجع الأعمال الكاملة ج ١١ ص ٦٧٠ - ٦٧٢ .

الذى أتيح لى الاهتداء إليه ، وأن أدعو أهل العقول الجيدة لمحاولة التقدم، باشتراكهم فى التجارب التى ينبغى القيام بها كل وفق ميله وعلى قدر استطاعته ، وأن يبلغوا الجمهور أيضاً كل الأشياء التى تعلموها حتى يبدأ اللاحقون من حيث انتهى السابقون ، وبذلك نصل أعمار الكثيرين وأعمالهم ، فنتقدم جميعاً أكثر مما يستطيع كل فرد مستقلاً .

بل قد لاحظت ، فيما يختص بالتجارب أنها كلما تقدمنا فى المعرفة كانت ألزم إذ أنه يحسن فى المبدأ ألا نستخدم إلا ما يقع منها من تلقاء نفسه تحت حواسنا ، وما لا نستطيع الجهل به ، مادمنا نفكر فيه تفكيراً مهما كان قليلاً ، بدلاً من أن نشغل أنفسنا بالأندر منها والأصعب . والسبب فى ذلك أن هذه التجارب النادرة تضلل كثيراً ، عندما لا نكون بعد على علم بعلل أكثرها شيوعاً وكذلك فإن الظروف التى تتصل بها تكاد تكون دائماً من الخصوصية وهى من الدقة بحيث تشق ملاحظتها . ولكن الترتيب الذى اتبعته فى هذا كان كما يلى : أولاً ، حاولت أن أجد على العموم المبادئ ، أو العلل الأولى ، لكل ماهو موجود ، أو يمكن أن يوجد فى العالم ، من غير (٦٤) أن أعتبر فى سبيل هذا الغرض غير الله وحده الذى خلقه ، وبدون أن استنتجها إلا من بعض بذور الحقيقة التى هى فى نفوسنا بالطبع[١] . وبعد ذلك ، بحثت فى ماهى المعلولات الأولى التى هى الأكثر جرياناً فى العادة والتى يمكن استنتاجها

---

(١) أى المبادئ الأولى الموجودة بالفطرة فى النفس .

من هذه العلل : ويبدو لى أننى بهذا ، وجدت سماوات ، وكواكب ، وأرضاً ، بل ووجدت فوق الأرض ، ماء ، وهواء ، وناراً ، ومعادن ، وبعض أشياء أخرى مشابهة لهذه ، وهى أكثر الأشياء شيوعاً وأبسطها ، وعلى ذلك فهى أسهلها أن تعرف . ثم أننى لما أردت أن أنحدر إلى الأشياء التى هى أخص ، عرض لى منها كثير متباين ، بحيث لم أعتقد أن فى استطاعة العقل الإنسانى أن يميز بين صور أو أنواع الأجرام التى هى فوق الأرض وما لا يحصى غيرها مما يمكن أن يوجد ، إذا أراد الله إيجادها ووضعها فوق الأرض ، ولا أعتقدت ، كما ينتج عن هذا أننا نستطيع تصريفها فى منفعتنا إلا أن يكون بأن نتوصل إلى العلل عن طريق المعلولات ، وأن نستخدم كثيراً من التجارب الخاصة . وبعد ذلك فاننى لما مررت بعقلى على كل الأشياء التى عرضت لحواسى ، فاننى أجرؤ على القول بأننى لم ألاحظ شيئاً منها لم يسهل على تفسيره بالمبادئ التى اهتديت إليها . ولكن يجب أن أعترف أيضاً بأن قوة الطبيعة رحبة وواسعة جداً . وأن هذه المبادئ بسيطة وعامة جداً ، بحيث أكاد لا ألاحظ أى أثر خاص لا أعرف أولاً أنه ممكن (٦٥) استنباطه من هذه المبادئ بكيفيات كثيرة مختلفة . وأن أكبر معضلة لدى هى فى العادة أن أجد من بين هذه الكيفيات الكيفية التى يتصل بها هذا الأثر بهذه المبادئ . لأننى لا أعرف لهذا حلاً إلا أن أبحث من جديد عن بعض تجارب ، لا تكون نتيجتها ، إذا كان يجب تفسيرها على كيفية من هذه الكيفيات ، كنتيجتها إذا كان يجب تفسيرها على كيفية أخرى .

على أننى الآن بحيث أرى . كما يبدو لى أى طريق يجب علينا سلوكه كى نقوم بأكثر التجارب التى تنفعنا فى هذه الغاية . ولكننى أرى أيضا أنها من العظمة ومن كثرة العدد ، بحيث لا تبلغ كفايتها كلها يداى ولا رزقى ، ولو أن لى ضعفه ألف مرة ، فعلى قدر ما سيكون لى منذ الآن من اليسر لكى أحقق منها كثيرا أو قليلا ، سأتقدم كذلك كثيرا أو قليلا فى معرفة الطبيعة . وهذا ما كنت آمل أن أوضحه بالرسالة التى كتبتها ، وأن أبين فيها بيانا جليا كثير الفائدة التى يستطيع الجمهور أن ينالها من ذلك ، وأن أطلب إلى كل الذين يرغبون على العموم فى خير الناس ، أى كل الذين هم أهل الفضيلة فى الحقيقة ، لا بالمظهر الخادع ، ولا بمجرد القول ، أن يبلغونى التجارب التى عملوها ، وأن يعينونى فى التجارب التى بقى استيفاؤها .

ولكن عرض لى منذ ذلك الحين ، حجج أخرى جعلتنى أغير رأيى ، وأن أفكر فى أنه يلزمنى فى الحقيقة أن أستمر فى كتابة كل الأشياء التى أحكم بأن لها بعض الأهمية ، على مقدار ما تكشف لى عن الحقيقة ، وأن أعنى بها كعنايتى لو أننى أريد طبعها . وذلك لكى تكون لى (٦٦) فرصة أكبر لا جادة تمحيصها ، كما أننا ندقق بلا شك فيما نعتقد أنه معروض لأنظار الكثيرين أكثر مما نفعل فيما لا نعمله إلا لأنفسنا ، وكثيرا ما كانت الأشياء التى بدت لى حقيقية عندما بدأت فى تصورها ، تبدو لى باطلة عندما كنت أريد وضعها على الورق ، ولكيلا

أضيع أي فـرصة لافـادة الجمـهور ، إذا كنت قادراً علـى ذلك وإذا كان لكتاباتى شـئ من القيمـة ، فإن الذين سوف يحـصلون عليهـا بعد مماتى يقدرون أن يستخـدموها استخداماً مناسبـاً ، ولكن لم يكن واجباً على أن أقر نشـرها في حياتى ، حـتى لا تكون المعارضـات والمجادلات التى ربما تكون كتاباتى عرضة لها ، أو الشـهرة مهما تكن ، التى تكسبنى أياها ، لتهـيئ لى أى فرصة لتضـييع الوقت الذى أنا عازم على انفـاقه فى تعليم نفسى لأنه وإن كان حقاً أن كل إنسـان مضطر أن يزيد فى خير الآخرين على قدر مـا يستطيع ، وأن كون المرء غيـر مفيد لأحـد هو نفس كونه لا يساوى شـيئـاً ، ومع ذلك فأنه حق أيضـاً أن عناياتنا يجب أن تتـجاوز حدود الوقت الحاضر ، وأنه من الخيـر أن نهمل الأشياء التى ربما جاءت ببعض الفائدة للأحياء ، إذا كان هذا على نية أن نعمل أشياء أخرى تأتى بفائدة أكـبر لأحفادنـا . كما أنى فى الحقـيقة أريد أن يكون مـعلوماً أن المقدار القليل الذى عرفته حـتى الآن يكاد لا يكون شيئاً بموازنته مع الذى أجهله ، وأنى لا أيأس من القـدرة على معرفتـه ، لأنه يكاد يكون سواء مثل الذين يكشـفون قليلاً فـقليلاً (٦٧) عن الحقـيقة فى العلوم ، كـمثل الذين عندما يـبدأون فى أن يضيـروا أغنياء ، يكون عناؤهم فى تحـصيل المقادير الكبيـرة أقل من عنائهم من قبل وهم فقراء فى تحـصيل ماهو أقل بكثيـر . وقد يسـتطاع مقـارنتهم برؤسـاء الجيش تزداد قواهـم على قدر انتصاراتهـم ، والذين يحتاجون إلى السيـاسة لكى يحفظوا أنفـسهم بعد

خسارة معركة أكثر من حاجتهم إليها بعد كسبها ليستولوا على المدن والأقاليم . لأنه في الحقيقة أن يخوض المرء غمار معركة مثل أن يحاول التغلب على كل المعضلات والأخطاء التى تعوقنا عن الوصول إلى معرفة الحقيقة ، وأن خسران معركة مثل قبول رأى فاسد يختص بمسألة عامة ومهمة إلى حد ما ، ويجب بعد ذلك من الحذق للعودة إلى نفس الحالة التى كان المرء فيها مبادئ وثيقة . أما أنا ، فإذا كنت قد وجدت فيما سبق بعض الحقائق فى العلوم (وآمل أن الأشياء التى يحتوى عليها هذا المجلد تدعو إلى الحكم بأننى وجدت بعضاً منها) فأننى أقدر على أن أقول انها ليست إلا توابع ولواحق خمس أو ست معضلات رئيسية تخطيتها ، وهى ما أعتبرها كمعارك كان الحظ فيها إلى جانبى . بل لن أخشى أن أقول ، أنى أرى أننى لم أعد فى حاجة إلى تحصيل غير اثنتين أو ثلاث أخرى مثلها للوصول إلى كل غايتى ، ولست من التقدم فى السن بحيث لا يكون لى وفقاً لسير الطبيعة العادى ، متسع من الوقت لتحقيق هذه الغاية . ولكننى أعتقد أنى مضطر إلى أن (٦٨) أقتصد فيما بقى لى من الوقت على مقدار قوة أملى فى القدرة على حسن استخدامه ، وستكون لى بغير شك فرص كثيرة لتضييعه ، إذا نشرت أصول مذهبى فى الطبيعيات[١] . لأنها وإن كانت كلها تقريباً من الوضوح بحيث لا

(١) أى بالاشتغال فى الردود على اعتراضات العلماء والانتباه إلى أعمال رجال الدين وكيدهم ، لأنهم كانوا يقاومون كل ما يعارض طبيعيات أرسطو .

يلزم لتصديقها إلا الاصغاء إليها . وبحيث أنه ليس منها ما أعتقد أنه يعجزني أن أقيم عليه البراهين . وعلى كل حال فلأنه من المستحيل أن تتفق مع كل الآراء المختلفة التي يقول بها غيرى فانني أتوقع أني سأحيد عنها كثيراً لما ستولده من معارضات .

ومن المستطاع أن يقال أن هذه المعارضات تكون نافعة لأنها تعرفني أخطائي ، ولأنها تزيد في فهم الآخرين لما قد يكون في مبادئ من صواب وكما أن الكثيرين يستطيعون أن يبصروا أكثر مما يبصر إنسان واحد ، فإن الذين بدءوا منذ الآن في الاستعانة بأصول طبيعياتي ، سيعينونني أيضاً باستكشافاتهم . ولكن مع أقراري بأنني جد معرض للخطأ ، وأنني أكاد أتمسك دائماً بالأفكار الأولى التي ترد على ، فإن التجربة التي أحصل عليها من الاعتراضات التي يمكن أن توجه إلى تمنعني أن آمل في منفعة منها . لأنني كثيراً ما جربت من قبل الأحكام : سواء كانت صادرة عمن كنت أعتبرهم أصدقاء لي ، أو صادرة عن آخرين كنت أعتقد أنني لست لهم لا بالصديق ولا بالعدو ، بل ومن بعض الذين عرفت أن خبثهم وحسدهم يجعلانهم يكشفون ما يستر الحب عن أصدقائي ، ولكنه ندر أن أعترض على بشئ لم أتوقعه البتة مالم يكن هذا الشئ بعيداً (٦٩) جداً عن موضوعي ، بحيث أنني لم أكد قط أجد منتقداً لآرائي ، ولم يبد لي انه أما أقل تدقيقاً أو أقل نصفة مني . وكذلك لم الاحظ أبدا أنه بواسطة المجادلات التي تثار في المدارس ، قد

استكشفت حقيقة كانت مجهولة من قبل ، لأنه بينما يحاول كل أن ينتصر ، يجتهد فى تعزيز المحتمل أكثر من اجتهاده في وزن الحجج من كل الجهات ، وإن الذين ظلوا زمناً طويلاً محامين بارعين لا يكونون بعد هذا لذلك السبب ، خير القضاة .

أما المنفعة التى سينالها الآخرون من نشر أفكارى فأنها لن تكون كبيرة جداً مادمت لم أتقدم بها تقدماً كبيراً يجعلها غير محتاجة إلى إضافة كثير من الأشياء إليها قبل تطبيقها على العمل . وأعتقد أننى أقدر على أن أقول دون غرور انه اذا كان يوجد شخص يقدر على ذلك ، فاننى أكون حتماً أولى بذلك من كل أحد غيرى ، وليس هذا لأنه لا يمكن أن يكون فى العالم عقول كثيرة أفضل من عقلى إلى الحد الذى لا يجارى ، ولكن لأنه ليس من المستطاع أن يجيد المرء تصور شئ وأن يجعله ملكاً له ، إذا تعلمه من غيره كما لو استكشفه بنفسه وذلك حقيقى جداً فى هذا الموضوع ، بحيث إنى كثيراً ما شرحت بعض آرائى لأشخاص أولى عقول جيدة ، وبينما كنت أتحدث إليهم كان يظهر لى أنهم يفهمونها فهماً متميزاً ، ومع هذا فأنهم عندما كانوا يعيدونها ، كنت ألاحظ أنهم كانوا يكادون دائماً يغيرونها بحيث لم أكن لأستطيع أن أعترف بأنها آرائى . وبهذه المناسبة فأنه يسرنى كثيراً أن أرجو أحفادنا ألا يصدقوا ما سيقال لهم أنه صادر عنى ، إذا لم أكن أنا قد أذعته بنفسى . وما كنت لأعجب البتة من هذا الشطط الذى يعزى إلى كل هؤلاء

الفلاسفة المتقدمين ، الذين ليست لدينا كتاباتهم[1] . ولست أحكم من أجل هذا أن أفكارهم كانت مجانبة للعقل ، مع العلم بأنهم كانوا من خيرة العقلاء فى أزمنتهم ، ولكننى أحكم فقط بأن أفكارهم ساءت روايتها . كما أننا نرى أيضاً أنه لم يكد يحصل أن أحد أتباعهم قد فاقهم ، وأنى لواثق ان أكثر متابعى أرسطو حماسةً الآن ، يرون أنفسهم سعداء لو أن لهم من العلم بالطبيعة ما كان له حتى بشرط ألا يتجاوزوا قدر ما علمه . أنهم مثل اللبلاب الذى ليس مستعداً لأن يرتفع إلى ما فوق الأشجار التى تسنده ، بل وكثيراً ما يهبط بعد أن يبلغ ذروتها ، لأنه يبدو لى أيضاً أن هؤلاء يهبطون ، أى أنهم يردون أنفسهم ، على وجه ما ، أقل علماً مما لو كفوا عن التحصيل ، هم لعدم اقتناعهم بمعرفة كل ماهو مشروح بطريقة مفهومة عند المؤلف الذى يقرءونه يريدون فوق ذلك أن يجدوا لديه حلاً لمعضلات كثيرة لا يقول فيها شيئاً ، وربما لم يفكر قط فيها . ومع ذلك فإن طريقتهم فى التفلسف موافقة جداً لأولى العقول الضعيفة ، لأن غموض التمييزات والمبادئ التى يستعينون بها سبب فى أنهم يستطيعون الكلام فى كل الأشياء بجرأة كأنهم يعرفونها ، وأن يؤيدوا كل ما يقولون فيها (٧١) ضد أشد الناس تدقيقاً وأكثرهم حذقاً دون أن تكون للمرء وسيلة لاقناعهم . وهم فى هذا يظهرون لى كمثل

(١) يقصد بعض الفلاسفة السابقين كسقراط لاسيما ديموقريطس (أنظر جلسون التعليق ص ٤٦٢) .

أعمى ، يريد أن يشاجر بصيرا دون أن يكون مغبوناً ، فيصل به إلى قاع كهف شديد الظلمة وأستطيع أن أقول أن لهؤلاء مصلحة فى أن أكف عن نشر مبادئ الفلسفة التى آخذ بها ، لأنها لما كانت على ماهى عليه من قوة البساطة والوضوح فأننى أكاد أكون لو أنى نشرتها كما لو أننى فتحت بعض المنافذ وجعلت النور يدخل إلى هذا الكهف حيث هبطوا للتشاجر . لكن خير الناس عقولاً أنفسهم ليست لهم فرصة ليتمنوا معرفة هذه المبادئ ، لأنهم إذا كانوا يريدون معرفة الكلام فى كل شئ وأن يشتهروا بأنهم علماء ، فأيسر لهم أن يدركوا هذا بأن يرضوا بالمحتمل الذى يمكن أن يوجد بدون عناء فى كل أنواع المسائل من أن يبحثوا عن الحقيقة التى لا تظهر إلا قليلاً قليلاً فى بعض المسائل ، وإذا عرض القول فى مسائل أخرى فهى تجبر المرء على أن يعترف صراحة أنه يجهلها . أما إذا كانوا يؤثرون معرفة قليل من الحقائق على غرور التظاهر بعدم جهل شئ ما ، لأن هذه المعرفة أفضل كثيراً بلا ريب ، وإذا كانوا يريدون السعى وراء مطلب شبيه بمطلبى ، فأنهم ليسوا فى حاجة لأجل هذا إلى أن أقول لهم أكثر مما قلت فى هذا المقال . لأنه إذا كانوا أهلاً لأن يتقدموا أكثر مما تقدمت فأنهم يكونون بالأولى أهلا لأن يستكشفوا بأنفسهم كل ما أعتقد أننى استكشفته . ولما كنت لم أدرس شيئاً قط إلا بترتيب فانه من المؤكد أن ما بقى على استكشافه هو فى نفسه أصعب وأخفى (٧٢) من الذى استطعت قبل الآن أن أصل إليه ، ويكون سرورهم بتعلمه منى أقل بكثير

من سرورهم بتعلمه بأنفسهم ، وعدا هذا فإن ما سيعتادونه ببحثهم أولاً عن الأمور السهلة ثم تجاوزهم اياها قليلاً قليلاً على قدر إلى أمور غيرها أصعب منها ، سيكون لهم أنفع من كل ما تستطيعه تعليماتى . كذلك ما يختص بى ، فأننى مقتنع بأننى لو كنت علمت منذ صباى كل الحقائق التى بحثت عن براهينها منذ ذلك الحين ، ولو كنت لم أكابد أى عناء فى تعلمها لكنت ربما لم أعلم قط شيئاً غيرها . وعلى الأقل ما كان يكون لى ما أعتقد من الاعتياد والسهولة اللتين أعتقد أنهما لى فى استكشاف الجديد من الحقائق دائماً على قدر اجتهادى فى البحث عنها . وفى كلمة واحدة إذا كان فى العالم صنيع لا يمكن أن يحسن انجازه إلا الذى بدأه بنفسه ، فذلك هو الصنيع الذى أعالجه .

وحقيقة ، فإنه فيما يختص بالتجارب التى تنفع فى ذلك ، فإن رجلاً واحداً لا يمكن أن يكفى للقيام بها جميعاً ، ولكنه لا يستطيع أيضاً أن يستخدم فى ذلك غير يديه استخداماً مفيداً ، اللهم إلا أن تكون أيدى الصناع ، أو مثلهم من الناس ممن يستطيع أن يدفع لهم أجراً ، والذين يبعثهم الأمل فى الكسب ، وهو وسيلة فعالة جداً ، إلى أن يحكموا صنع كل ما يأمرهم بصنعه من الأشياء . فإن المتطوعين ، الذين ربما ندبوا أنفسهم لمعاونته ، تطلعاً ، أو رغبة فى المعرفة ، فعدا أن لهم فى العادة من المواعيد أكثر مما لهم من الأعمال وأنهم لا يعملون إلا خططاً جميلة لا ينجح واحد منها قط ، فإنهم يرغبون حتماً فى أن يكافأوا بأن توضح لهم

بعض المعضلات أو على (٧٣) الأقل بثناء ومسامـرات غير مجدية ، وكل وقت يصرفه فى هذا ، وإن قل ، فهو مضيع .. وأما التجارب التى قام بها آخرون من قبل حتى لو أنهم أرادوا ابلاغها إليه ، وهم لا يبلغونه قط ما يدعونه أسراراً ، فأكثر هذه التـجارب ، يتألف من ظروف كثيرة ، أو من أجزاء نافلة ، بحيث يتعسر عليه أن يستخلص منها الحقيقة ، وفوق ذلك فإنه يكاد يجدها كلها سيئـة الشرح جداً ، بل قد تكون فاسدة جداً ، لأن الذين قاموا بهـا تعلموا أن يجعلوا لها مظهر اتفـاق مع مبادئهم ، فلو أن فيهـا بعض ما ينفعـه ، ما كافأ الوقت الذى ينبـغى انفاقه فى اخـتياره .. وعلى ذلك فـإنه إذا كان فى العـالم شخص ، نـعلم يقينا أنه قـادر على استكشاف أعظم الأشياء ، وأكثر ما يمكن أن يكون نافعاً للناس ، وأنه ، من أجل هذا ، يحاول كل الناس ، بكل الوسائل ، أن يعينوه لكى يبلغ بمطالبه غاية النجاح ، فأننى لا أرى أنهم يقدرون على شئ ينفعه ، اللهم إلا أن يمدوه بنفـقات التجـارب التى يحتـاج إليها ، ثـم بعد ذلك ، أن يحولوا دون وقته أن يذهب به تدخل فضولى ، ولكنى عدا أننى لا أزهى بنفسي إلى حد أن أرغب فى أن أعد بأمـر يتجاوز المألوف ، ولا أستطيع أن أتشبع بأفكار خادعة ، إلى حد أن أتخـيل أن الجمهور يجب أن يهتم بخططى كثيـراً ، فان نفسى (٧٤) ليست أيضاً من الضـعة بحيث أرضى بأن أقبل من أى إنسان مهما كان أى نعمة ، يمكن أن يظن أننى لم أكن أهلاً لها .

كل هذه الاعتبارات معاً ، كانت سبباً منذ ثلاث سنين فى أننى لم أرد أن أذيع الرسالة التى كانت بين يدى ، بل وأن أصمم على ألا أظهر طول حياتى ، غيرها مما يكون عاماً أو يمكن أن تفهم منه أصول طبيعياتى ولكن عرض منذ هذا الحين سببان آخران اضطرانى إلى أن أورد هنا بعض المحاولات الخاصة[1] ، وأن أذيع بين الناس بعض بيان لما عملته وما أنويه. أما السبب الأول فهو أننى إذا أغفلت هذا ، فإن الكثيرين الذين علموا بعزمى من قبل على نشر بعض الكتابات ، ربما تخيلوا أن الأسباب التى بعثتنى إلى أن أعدل عن عزمى ترجع إلى عيب فى أكثر مما فى الواقع لأنه ولو أنى لا أغلو فى حب المجد ، بل وإذا جاز لى القول ، فأننى أكرهه مادام حكمى أنه يجافى الراحة التى أقدرها فوق كل الأشياء، فأننى لم أحاول مع ذلك أن أخفى أعمالى كما تخفى الجرائم ، ولم أستعن بكثير من الحيطة كي أكون غير معروف ، وذلك لاننى كنت أعتقد أننى بهذا أسئ إلى نفسى كما أن ذلك يسبب لى نوعاً من الاضطراب يجافى أيضاً ما أنشده من الراحة الكاملة للنفس . ولأنه ، لما كنت كذلك غير مهتم بأن أكون مشهوراً أو غير مشهور ، ولم أقدر على أن أتحامى حصولى على بعض ضروب الشهرة ، رأيت أنه يجب على أن أعمل مافى وسعى لأتحامى على الأقل أن تكون لى شهرة سيئة . والسبب

---

(١) يقصد رسائله الثلاث أنكسار الأشعة وعلم الأنواء والهندسة التى ظهرت جميعاً مع المقال عن المنهج سنة ١٦٣٧

الثانى الذى حملنى على كـتابة هذا ، هو أننى لما رأيت فى كل يوم تزايد التعويق الذى يصيب خطتى فى تعليم نفـسى . وذلك بسبب حاجتى إلى تجارب لا تحصى ، يستحيل أن أنجزها دون معـاونة الغير ، ومع أننى لا أغتـر بنفسى إلى حد أن آمل أن تأخـذ الدولة بقسط وافر فى مـشاغلى ، فاننى على كل حال لا أرغب فى أن أقصر فى حق نفسى إلى حد أن أبرر لمن يعيشون بعدى أن يعيـبونى يوماً ما بأننى كنت أستطيع أن أترك لهم أشيـاء كثـيرة خـيراً مما فعلت ، هـذا إذا لم أكن قد أفرطت فـى اهمال تفهيمهم ما الذى يستطيعون به أن يشاركوا فى تحقيق خططى .

وقد رأيت أنه كان هيناً على أن أختار بعض المواد ، التى وإن كانت ليست موضوع مجادلات كثيـرة ، ولا تجبرنى على آفشى من مبادئى فوق ما أريد . فانهـا لا تضعف عن أن تبين بوضوح كاف ما أقـدر عليه أو ما لا أقدر عليـه فى العلوم . ولا أستطيع أن أقـول أننى نجحت فى ذلك ، وما أريد أن أتنبأ بأحكام أى إنسان ، عندما أتحدث بنفسى عن كتاباتى ، ولكن يسرنى كـثيراً أن تمتـحن ، ولكى يتيـسر لذلك أكثـر ما يمكن من الفرص أبتـهل إلى من قد يكون لهم عليهـا اعتراض أن يكلفوا أنفـسهم مشقة أرسـال اعتراضاتهم إلى وراقى[1] ، وعندمـا يعلننى بذلك ، فـانى أجتهد فى أن أقرن الاعتراض بردى عليه فى الوقت عينه ، وبهذه الطريقة يرى القراء هذا وذاك معاً ، فـيكون أسهل لهم أن يحكموا بما هو أحق .

---

(١) الوراق هو صاحب المكتبة وناشر الكتب .

فاننى لا أعد بأن أكتب قط ردوداً مطولة ، ولكننى أقتصر على أن أقر (٧٦) بأخطائى بصراحة كثيرة ، إذا عرفتها أو أن أقول فى بساطة إذا لم أقدر على أدراكها ، ما أعتقد أن الدفاع عما كتبته يحتاج إليه ، دون أن أضيف إلى ذلك تفسير أى مسألة جديدة ، حتى لا أنتقل إلى غير نهاية من واحدة إلى أخرى .

وإذا كانت بعض المسائل التى تكلمت عنها فى بدء علم أنكسار الأشعة[١] وعلم الأنواء تصدم فى بادئ الأمر ، وذلك لأننى أسميها فروضاً ، ولأنه يبدو أننى لا أعنى باثباتها ، فليكن للقارىء صبر على استيفاء ما كتبته بانتباه ، وآمل أنه يجد فيه رضاه ، لأنه يبدو لى أن

---

(١) يعرفه مرسن فى كتابه الحقيقة فى العلوم بأنه العلم «الذى يعرفنا كيف نبصر بواسطة الشعاع المنكسر كما هو الحال عندما نرى جزءاً منها فى الماء والآخر فى الهواء» أدام حياة ديكارت ١٨ (١٨٥) .

ويدخل فيما يسميه العرب بعلم المناظر وهو ما يسميه الأورييون Optique ويترجمه المحدثون بكلمة علم الضوء ويعرفه ابن خلدون فى مقدمته بقوله «هو علم تتبين به أسباب الغلط فى الإدراك البصرى بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن ادراك البصر يكون بمخروط شعاعى رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئى ، ثم يقع الغلط كثيراً فى رؤية القريب كبيراً والبعيد صغيراً وكذا رؤية الأشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة ، ورؤية النقطة النازلة من المطر خطاً مستقيماً والشعلة دائرة وأمثال ذلك الخ» وابن خلدون يعتبره من العلوم الهندسية ولكن ديكارت يراه من العلوم الطبيعية الممزوجة بالرياضة .

الحجج تتوالى فيها كأن الأواخر تبرهن عليها الأوائل ، التى هى عللها وكأن هذه الأوائل أيضاً تبرهن عليها الأواخر التى هى معلولاتها[1] ولا ينبغى أن يتوهم أننى أقع هنا فى الخطأ الذى يسميه المناطقة بالدور[2] ، لأنه لما كانت التجربة تجعل أكثر هذه المعلولات مؤكدة جداً ، فإن العلل التى استنبطت منها هذه المعلولات لا تصلح لأن تثبت وجودها بمقدار ما تصلح لأن تفسرها ، ولكن الأمر على العكس فإن العلل تثبتها المعلولات. وأنا لم أدعها فروضاً . إلا لكى يعلم أنى أعتقد بالقدرة على استنباطها من هذه الحقائق الأولى التى شرحتها من قبل ولكنى أردت عن

---

(١) قال هملان : ان كون الله مصدراً للخير هو وجه للتعبير عن عقلية الوجود ، وإذا كنا نقدر أن نقيم فوق مبدأ وضوح المعانى وغيزها * نظرية للوجود ، أى إذا كان المذهب العقلى يؤدى إلى نظرية للوجود كافية ، فنحن إذا عدنا من الوجود كما هو محدد ، نستنبط إذن من طبيعته أن الحقيقة تتمثل للعقل بواسطة وضوح المعانى وتميزها . وبعبارة أخرى من المستطاع أن يقال أن الله يكشف لنا الحقائق بواسطة المعانى الواضحة المتميزة ، ثم يقول «العلاقة بين مبدأ المعانى الواضحة المتميزة والقول فى الله ، أو فى الوجود العقلى كما يبدو لنا ، تكاد تكون كما يظهر ، نفس العلاقة التى يسلم بها ديكارت بين الوقائع والفروض فى الطبيعيات ، الأوائل هى برهان الأواخر والأواخر هى برهان الأوائل ، دون أن يكون فى هذا أقل دور» مذهب ديكارت ٣ ص ١٤٢ وقارن هذا بما كتبناه في المقدمة عن نظرية المعرفة عند ديكارت ولاسيما ص (مط) و (ن) .

(٢) الدور خطأ فى المنطق ينحصر في البرهان على شئ بشئ آخر يتوقف على الأول .

* أى قول ديكارت بأن كل ما نتصوره بوضوح وتميز حقيقى ومعنى حقيقى عنده هو معنى واقعى .

قصد ألا أفعل هذا كى أمنه بعض العقول التى تتوهم أنها سرعان ما تعرف فى يوم واحد كل ما فكر فيه الغير فى عشرين عاماً إذا قال لهم عنه كلمتين أو ثلاثاً والذين يكونون أكثر تعرضاً للخطأ ، وأقل قدرة على إدراك الحقيقة كلما كانوا أكثر تدقيقاً وأكثر نشاطاً من أن يتخذوا من ذلك فرصة ليقيموا فلسفة متطرفة فوق ما يعتقدونه مبادئ ، وأن ينسب إلى ما فيها من خطأ[1] . لأنه فيما يختص بالآراء التى هى كلها آرائى فاننى لا أدافع عنها باعتبارها جديدة مادام إذا قدر المرء حججها فأننى واثق أنه يجدها بسيطة جداً ومطابقة للعقل العادى بحيث تظهر أقل شذوذاً وغرابة من كل ما سواها مما يمكن أن يكون فى نفس الموضوعات ، وأنا لا أزهى أيضاً لأننى المبتدع الأول لأى رأى منها ولكن لأننى لم أقبلها قط لأن آخرين قالوا بها . ولا لأنهم لم يقولوا بها ، ولكننى لم أقبلها إلا لأن العقل أقنعنى بها .

وإذا كان الصناع لا يستطيعون أن يحققوا عاجلاً الاختراع الذى شرحته فى علم انكسار الأشعة ، فأننى لا أعتقد أنه يمكن القول من أجل

(١) صح حدس ديكارت ومع هذا ، فإن الأستاذ ليفى برول L.Lévy-Bruhl يقول عند كلامه عن تطرف بعض الفلاسفة فى القرن الثامن عشر وعدائهم للدين والنظم الاجتماعية القائمة «أن مبادئ ديكارت منشولة ، إلى حد كبير ، عن تكوين فلسفة شديدة الاختلاف مع فلسفة ديكارت» النزعات العامة لبيل وفنتنل Les tendances générales de Bayle et de Fontenelle فى مجلة تاريخ الفلسفة Rev. d'histoire de la philosophie السنة الأولى (١٩٢٧) ص ٥٠ .

هذا بأنه ردئ : لأنه مادام الحذق والمران لازمين لصنع الآلات التى وصفتها وضبطها دون أن ينقص هذا أى شرط ، فإن دهشتى إذا نجحوا لأول وهلة لن تكون أقل من دهشتى لو استطاع إنسان فى يوم واحد أن يتعلم العزف بالعود ببراعة وذلك لأنه أعطى لوحاً جيداً للرموز الموسيقية.

وإذا كنت أكتب باللغة الفرنسية التى هى لغة بلادى بدلاً من أن أكتب باللغة اللاتينية التى هى لغة أساتذتى فذلك لأننى آمل أن هؤلاء الذين لا يستعينون إلا عقلهم الفطرى الخالص سوف يكونون أحسن حكماً فى آرائى من أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالكتب القديمة . وأما من يجمعون بين (٧٨) العقل والتحصيل وهم وحدهم من أتمنى أن يكونوا قضاتى فاننى على ثقة من أنهم لن يكونوا من التحزب للغة اللاتينية بحيث يأبون الاصغاء لحججى لانى أشرحها بلسان عامى .

بقى أننى لا أريد أن أتحدث هنا حديثاً خاصاً عن التقدم الذى آمل أن أتقدمه فى العلوم فى المستقبل ، ولا أريد أن آخذ على نفسى أمام الناس عهداً لا أثق من انجازه ، ولكننى أقتصر على القول بأننى صممت على ألا أنفق بقية حياتى فى غير الاجتهاد فى تحصيل شئ من العلم بالطبيعة يكون بحيث يمكن أن تستخلص منه للطب قواعد أوثق مما وجد حتى الآن ، وأن ميلى ليبعدنى بعداً كبيراً عن كل أنواع المقاصد الأخرى لاسيما تلك التى لا تكون مفيدة للبعض إلا إذا أضرت بآخرين[1] . فلو

---

(١) ربما يريد ديكارت أن يقول هنا أنه لا يقبل أن يجيب دعوة أحد الأمراء كى يطبق فى =

اضطرتنى بعض الظروف إلى أن أعـالجهـا فما كنت لأعـتقـد أننى أكون أهلاً للنجاح فيهـا . وأنى لأعلن هذا وأعلم خير العلم أن هذا الإعلان لا يستطيع أن يجعلنى مبجـلاً فى العالم . ولكن ليـست لى أى رغبة فى هذا أيضاً ، وسأكون دائماً معترفاً بـالجميل للذين بفضلهم أستمتع بوقتى من غير عائق أكثر من اعترافى بالجميل لمن قد يهدون إلى أكبر ما فى الأرض من مناصب التشريف .

---

= مصلحته علومـه فى حيل الحروب ، وهذا تفسير لاستاذنا مسـيو لالاند شافهنا به سنة ١٩٢٧ عند قراءته للمقال فى الجامعة المصرية ووافق على اثباته هنا أثناء طبع هذا الكتاب .

مقال عن المنهج

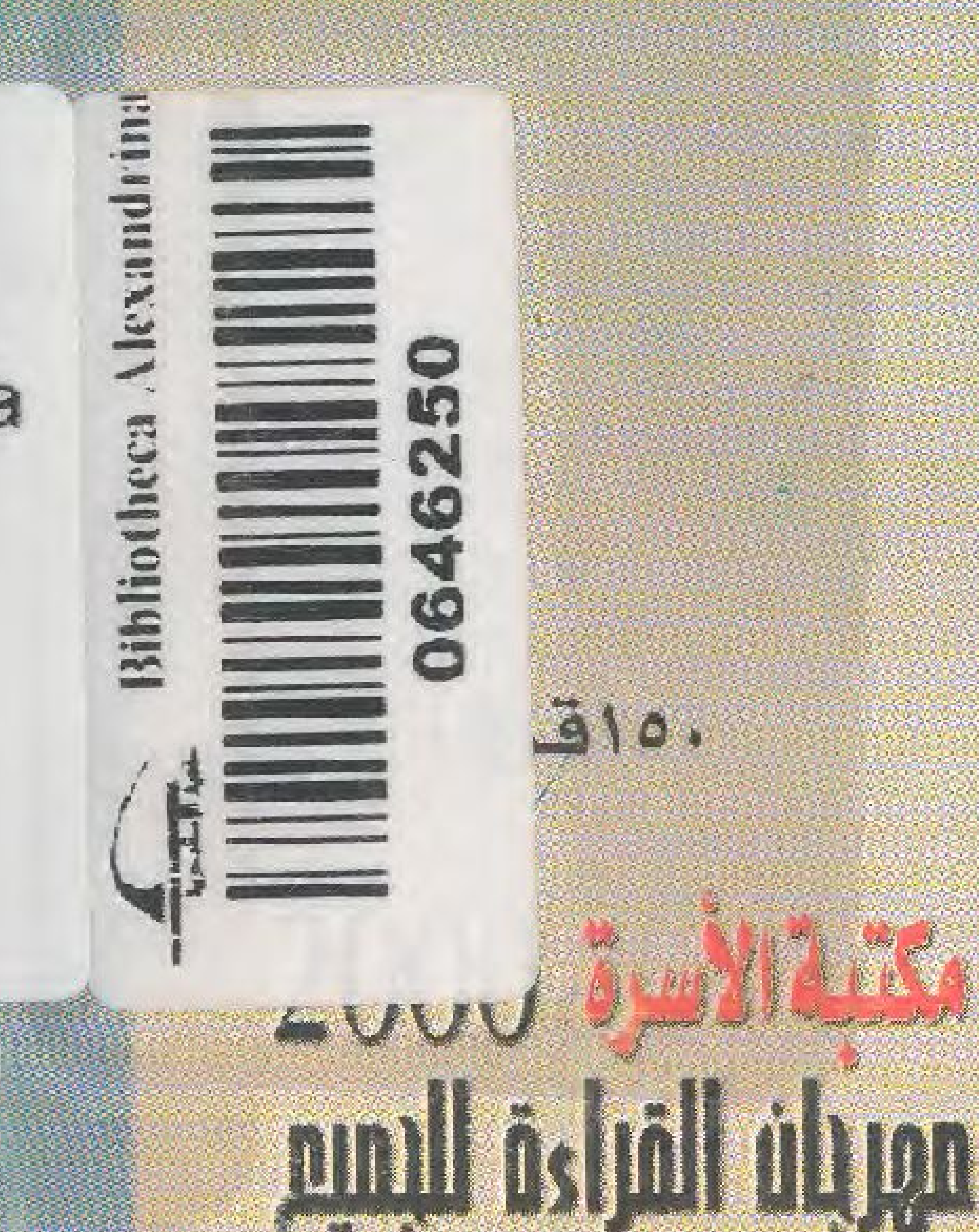
I.S.B.N $\frac{٢٠٠٠/١١٣٤١}{977-01-6849-1}$



هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة».. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام، واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة».. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدراً هاماً وخالداً للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

**سوزان مبارك**



Bibliotheca Alexandrina
0646250

١٥٠ق

مكتبة الأسرة 2000

مهرجان القراءة للجميع

